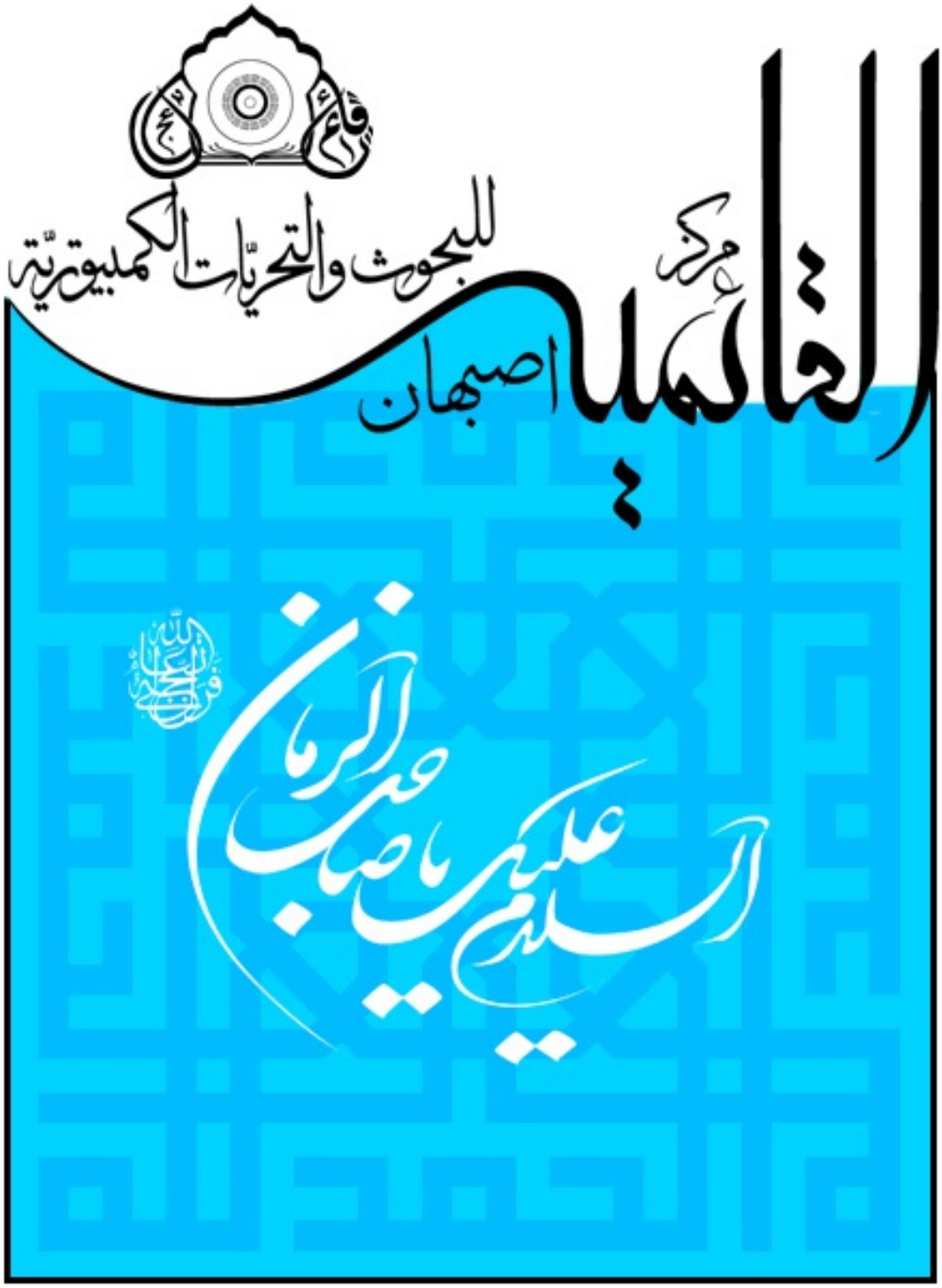

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الامام الباقر عليه السلام
نجى الرسول (ص)
سليمان كتانى

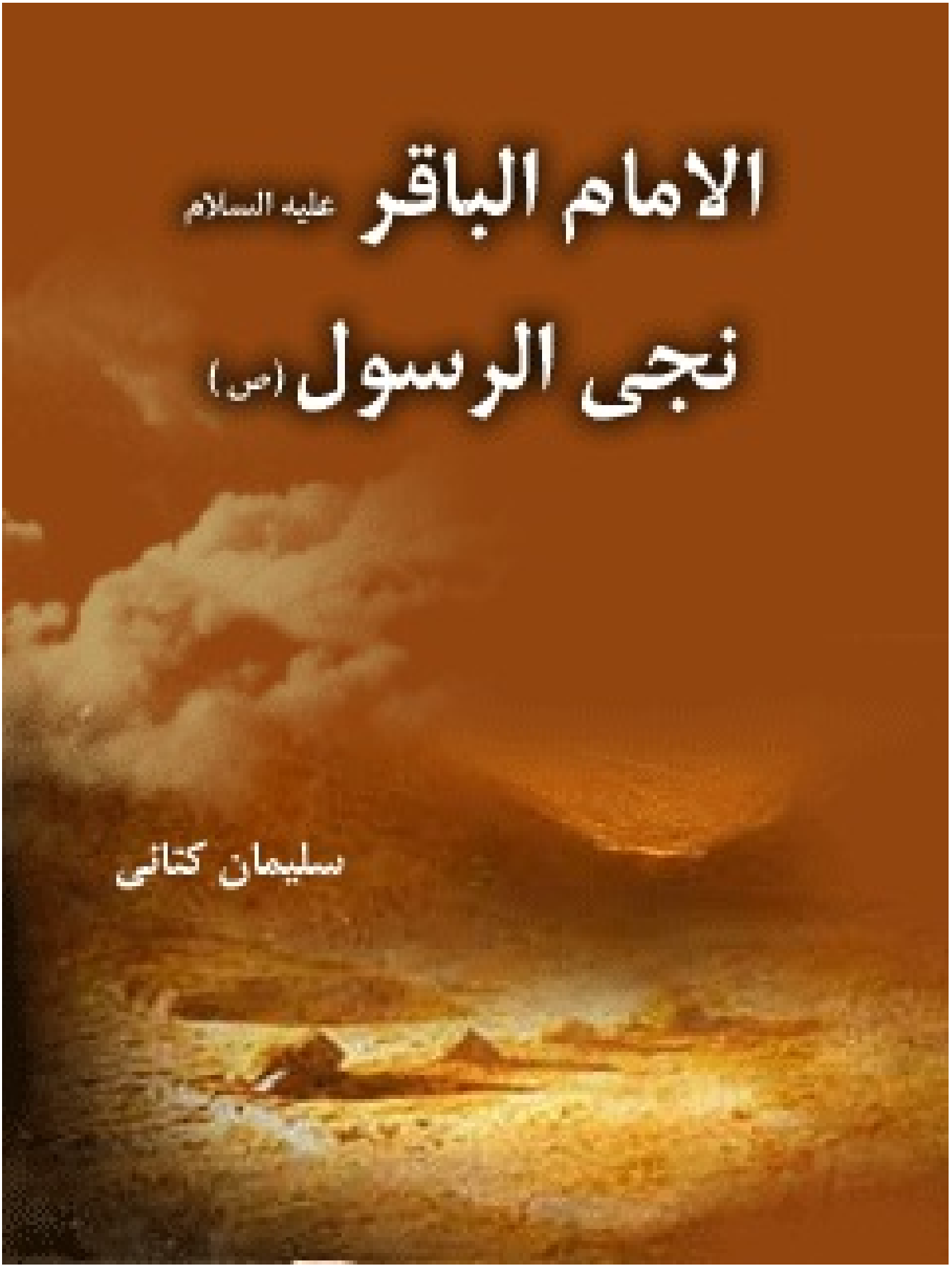

بسم الله الرحمن الرحيم

الامام الباقر عليه السلام نجى الرسول

كاتب:

سليمان كتانى

نشرت فى الطباعة:

دارالهادى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الامام الباقر علیه السلام نجی الرسول ----- ۸
اشارة ----- ۸
تمهید ----- ۸
اشاره ----- ۸
مسیرة الانحراف ----- ۸
سیاسات موروثة ----- ۹
نتائج و آثار ----- ۹
الانجاز الحقیقی للامام الباقر ----- ۹
هذا الکتاب ----- ۱۰
الی مکتبة أهل البیت العامة فی النبی شیت ----- ۱۰
الکلمة الأولی ----- ۱۱
المقدمة ----- ۱۲
خطوط عریضة ----- ۱۴
اطلالة الشبیه ----- ۱۴
الباقر ----- ۱۵
جابر الأنصاری ----- ۱۶
الرسالة ----- ۱۶
الخط العریض ----- ۱۸
الامامة ----- ۲۰
الأمة ----- ۲۱
آل البیت ----- ۲۲
الامام الحسین ----- ۲۴

حزن کربلاء ۲۵
ساحات کربلاء ۲۸
سبابة الباقر ۲۹
امام فی ظل امام ۳۰
امتداد الخط ۳۰
من الکوفة الی الشام الی یثرب ۳۱
و فی یثرب ۳۲
زین‌العابدین ۳۳
العلم الکبیر و العلم الصغیر ۳۶
سجادات الإمام ۴۱
جامعة فی یثرب ۴۲
عهد الباقر ۴۴
دراسة ۴۴
اشاره ۴۴
نظرة عامة ۴۴
مع الإمام علی ۴۵
مع الإمام الحسن ۴۵
مع الإمام الحسین ۴۶
مع الإمام زین‌العابدین ۴۶
عقدة الحکم ۴۷
و الباقر ۴۷
نجی الرسول ۴۸
اشاره ۴۸
الرهان ۴۹

اشاره ----- ۴۹
واقع الرسالة ----- ۴۹
واقع الأمة ----- ۴۹
واقع الامامة ----- ۴۹
واقع السياسة ----- ۵۰
واقع أهل البيت ----- ۵۰
النهج ----- ۵۱
الجامعة ----- ۵۲
الاحاطة ----- ۵۴
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۵۶

الامام الباقر علیه السلام نجی الرسول

اشارة

عنوان کتاب:الامام الباقر علیه السلام نجی الرسول/ سلیمان کتانی

وضعیت نشر و پخش و غیره :بیروت: دارالهادی، ۱۴۲۸ق = ۱۳۸۵

مشخصات ظاهری:۱۷۴ ص

زبان متن نوشتاری یا گفتاری و مانند آن:عربی

محل و شماره بازیابی:کتابخانه مجلس شورای اسلامی۱۲۸۳۶۷۷

شناسگر رکورد:۶۱۰۱۳۵

تمهید

اشاره

بسم الله الرحمن الرحیم و الحمد الله، و الصلاة و السلام علی محمد و آله بعد کربلاء: لقد ظن الأمویون، بما فیهم الممسکون منهم بزمام الحکم، و سائر من یدور فی فلکهم: أن استشهاد الإمام الحسین علیه‌السلام، و خیرة أهل بیته، و صفوة أصحابه فی کربلاء، عام ۶۱ للهجرة، سوف یطوی، أو هو قد طوی بالفعل صفحة تاریخ البیت الهاشمی، الذی أفل نجمه، و خبت ناره، و انقطع صوته وصیته، حتی أکل الدهر علیه و شرب. و قد حلت محلها صفحة تاریخ البیت الأموی، فلیکتب فیها أهل هذا البیت و أعوانهم و أزلامهم ما شاؤا فلم یعد ثمة من یراقب أو یحاسب. لیسجل لهم التاریخ سجل عنفوان الجبارین، و کل زهو المترفین، و خیلاء العتاة و المتسلطین. و لیکتب علی کل جبین أولئک المستضعفین، الفقراء، السذج منهم و البسطاء ما شاء من ألم و شقاء، و من حرمان و بلاء، و اضطهاد و عناء. فقد أصبحت الدنیا مستوسقة لبنی عبد شمس، و الأمور مسقة ، و لم یعد للبیت الهاشمی، و خصوصا آل أبی‌طالب، أی دور فاعل فی نطاق التحدی لحکم هؤلاء الجبارین. هکذا ظنوا، أو هکذا خیل لهم. [صفحه ۶] قالوا لحمامة سعدهم (النحس): خلالک الجو فبیضی و اصفری و نقری ما شئت أن تنقری لکن ظن الأمویین هذا لم یقعدهم عن مواصلة التصدی و التعدی، بسبب و بدون سبب، علی رموز البیت الهاشمی، بهدف أن تبقی الأمة صغیرها و کبیرها مستشعرة الرهبة من أن تحدث نفسها بأی تقرب، أو مراودة، ولو علی مستوی الحیاة العادیة مع أهل هذا البیت، الرمز، و المثل الأعلی. و مرت فترة مریرة و کریهة أمکن للأمویین أن یلمسوا خلالها لدی رموز البیت العلوی عزوفا عن مناهضة حکمهم بأسلوب العنف و الحدة فی هذه الفترة علی الأقل - فلم یجدوا بعد أی مبرر لمواصلة ذلک المستوی من القسوة الظاهرة، التی کانت تعود علیهم بسلبیات کبیرة، کانوا یحبون تحاشیها و التخلص منها. و وجدوا أن بامکانهم افساح المجال لأئمة أهل البیت لیعیشوا حیاة عادیة و رتیبة، ولکن فی نطاق الرقابة القویة و الفاعلة. و لینصرفوا لمتابعة صراعاتهم مع الآخرین من خوارج و غیرهم... و هکذا کان.

مسیرة الانحراف

و فی المجال الآخر: کان الأمویون یملکون حوافز قویة، و اندفاعا طاغیا لقیادة مسیرة الانحراف. و کانت لدیهم کل القدرات التی تهیء لهم الفرصة لقیادة هذه المسیرة، و تغذیتها، و تنشئتها، و حمایتها بالقوة العسکریة، و السیاسیة، و السلطویة، و الترویح لها اعلامیا، بل و حتی التنظیر لها، و التلبیس علی الناس، و خداعهم، بها فکریا و عقیدیا، إذا لزم الأمر. و کان لهذه المسیرة ما یکفیها أیضا من

الدوافع الغريزية، و الشهوية، و من الطموحات الباطلة و اللامشروعة لدى جمهور لم يترب تربية صالحة، [صفحه ۷] و لم يمتلك من الوعى العقيدى، و الشرعى ما يحصنه من الاندفاع بقوة طاغية فى هذا الاتجاه أو ذاك، دون أى شعور بالمسؤولية، أو بتأنيب الضمير، و دون أن يكون لديه أية كوابح أخلاقية، أو رقابة وجدانية مؤثرة. و ذلك لأنّ دعوة بنى‌أمية و كل أطروحتهم هى الدنيا، و كل ما فيها من ملذات، و زبارج و بهارج، تروق لهذا الانسان و تهيمن على مشاعره.

سياسات موروثة

و مما تهيّأ لبنى أمية أن يحققوا مآربهم، ما ورثوه عن سلفهم من سياسات بدأت تؤتى ثمارها، و تظهر تبعاتها و آثارها الكبيرة و الخطيرة، على الحياة الفكرية و الثقافية، و العقيدية للناس، و على كل الواقع السياسى، و الاجتماعى، و التربوى، و غيره. هذه السياسات التى كان أهمها اقصاء الاسلام، و كل ما هو شرع و دين عن حياة الناس، فكان أن انحسرت كل معالمه و آثاره الحقيقية عن مختلف المواضع و المواقع على امتداد مساحة الدوة الاسلامية، فى طول البلاد و عرضها. فقد ورثوا عن سلفهم سياسات بدأوها منذ وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، مثل: المنع من السؤال عن معانى القرآن. و المنع عن كتابة و رواية حديث و سيرة الرسول. و منع كبار الصحابة من مغادرة المدينة المنورة، خوفا من نشر العلم، و من أمور أخرى. بل و منع الناس من العمل بالسنن النبوية، حتى انهم كانوا لا يطيقون أن يروا الناس يكثرون من الصلاة فى المسجد أو من الطواف حول [صفحه ۸] الكعبة الشريفة، فمنعوهم من ذلك الا من الشىء اليسير. و فى المقابل أفسحوا المجال أمام مسلمة أهل الكتاب و القصاصين المتأثرين بهم ليثقفوا الناس، بترهاتهم من الاسرائيليات التى كانوا يمزجونها بكثير من الخيالات الباطلة و الزائفة. هذا بالاضافة الى محاولات متكررة للحط من شأن النبى (ص) نفسه، و التأثير على قداسته فى النفوس. مع كثير من الأصرار على تضخيم مقام الخلافة و الخليفة الى حد تفضيل الخليفة على جميع الأنبياء و المرسلين. ثم اعطاؤهم الحاكم حق التشريع و التلاعب بأحكام الله سبحانه و تلبيس أحكام الجاهلية بلباس الدين و الاسلام. ناهيك عن امعانهم الوقح فى سياسات التميز العنصرى و الفئوى، و القبلى. الى غير ذلك مما لا مجال لتتبعه و استقصائه.

نتائج و آثار

و قد كانت لهذه السياسات نتائج مرة، حيث تمكنت من تدمير البنية الفكرية، و العقيدية، الثقافية و التربوية الاسلامية بصورة عامة تدميرا كاملا، أو كادت. و أصبحت الأمة تعيش غربة حقيقية عن الاسلام و عن القرآن و أحكامه، و عن رسومه و أعلامه. و عن عهد امامة. و فى عهد الإمام الباقر عليه‌السلام، كان قد مضى على هذه السياسات حوالى قرن من الزمن. طويت فيه أربعة أجيال من الناس لينشأ جيل جديد أشد ايغالا فى البعد عن هذا الدين. و عن نبيه الكريم، و قرآنه العظيم. [صفحه ۹] و إذا كان على عليه‌السلام الذى استشهد فى سنة أربعين للهجرة يقول: لم يبق من الاسلام الا اسمه، و من الدين الا رسمه. و إذا كان حذيفة بن اليمان، الذى توفى قبل على عليه‌السلام بحوالى خمس سنوات يقول: فابتلينا حتى لا يستطيع الرجل منا أن يصلى الا سرا. فكيف تكون الحال فى سنة مئة أو بعدها؟! ان التاريخ يجيبنا على هذا السؤال فيحدثنا: أن بنى‌هاشم الى أن مضت سبع سنين من امامة الباقر ما كانوا يعرفون كيف يصلون، و لا كيف يحجون. مع أن الهاشميين كانوا أقرب الناس الى مصدر المعرفة و العلم بالدين و الصلاة هى الواجب التى يمارسه كل مسلم خمس مرات على الأقل فى كل يوم. فاذا كان هؤلاء يجهلون حتى أبسط الأحكام، فكيف تكون حال غيرهم ممن يعيشون فى أطراف الدولة الاسلامية، و ليس لهم تاريخ فى الاسلام، و لا شأن علمى فى أمور الدين و الشريعة. و إذا كان الجهل قد انتهى بهم الى هذا المستوى، فكيف بالمسائل التى يقل التعرض لها، أو الابتلاء بها؟!.

الانجاز الحقيقى للامام الباقر

و قد كان الانجاز الكبير، و المهم جدا للامام الباقر عليه‌السلام هو فى هذا المجال بالذات. فانه قد بقر العلم لهذه الأمة، و لم يترك بابا من أبواب الفقه و الشريعة، و لا ـ مجالا ـ فى شتى مناحى المعارف. و لا ـ شأنا من شؤون العقيدة، و الأخلاق، و التربية، و السياسة، و السلوك، و غير ذلك مما تحتاج اليه الأمة الا و سجل فيه و فى أدق تفاصيله و جزئياته النظرية و التطبيقية كلمة الاسلام الهادفة، و المرشدة الى طريق الحق، و الخير، و الهدى. ثم جاء بعده ولده الإمام الصادق البار الأمين عليه‌السلام ليكمل [صفحه ۱۰] المسيرة و يتابع رسم الطريق، لكل الأجيال، و على امتداد العصور، و الدهور. و كان الإمام السجاد قبلها هو الذى استطاع بسياسته الفضلى، و بطريقته المثلى أن يهيء المناخ المناسب لنشوء مدرستها سيما التى استقطبت المئات من رواد العلم بل الآلاف. اذ من البديهى: أن هذا الامتداد القوى و العميق لم يكن ليحصل لو لم يسبقه تخطيط و اعداد عملى واسع فى نطاق ترسيخ قواعد فكرية و اجتماعية و خلقية أو الاستفادة من ظروف سياسية أصبحت مؤاتية فأرسيت القاعدة العقيدية و الفكرية الصلبة، التى قام عليها ذلك البناء الشامخ لمدرسة استطاعت أن تلهب فى العالم الاسلامى، جذوة طالما عمل الحكام و المتسلطون على اطفائها و قد تركت بصماتها على كل قضية، و فى كل موضع و موقع، فى شتى مجالات الحياة.

هذا الكتاب

أما هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء الكريم «الامام الباقر، نجى الرسول» تأليف الأديب الكبير، الفذ الأستاذ سليمان كتانى. فقد وفقت لقراءة بعض فصوله، فوجدته الكتاب الزاخر بالصور الحية، الغنى باللفتات و اللمحات، الذى يختزن فى ايحاءاته القوية قدرة على النفوذ الى أعماق المشاعر و الخواطر، شاءت ذلك أم أبت. و لا غرو فإن مؤلفه أديب بارع محلق، استطاع بجرأته، و باتزانه أن يقتحم الساحة بوعى و ثبات، و شموخ و شمم، ليمارس حريته فى الفكر و فى القول، وفق قناعاته الراسخة، رغم كل ما يعترض طريقه من أشواك تلامس قدميه، لتؤذى روحه و ترهق مشاعره. انه الرجل الذى اعتصر الفكرة فى الكلمة، لتتقاطر منها فتكون [صفحه ۱۱] العذب الزلال الصافى، الذى يأرج طيبا، و يتفاوح عطرا، و يتماوج نقاء دون أن يفقد أسلوبه قوته و رصانته و أصالته. و صفاءه كذلك. ان هذا الكتاب ليس تاريخا لشخص، بل هو استشراف عام لواقع أمة، من خلال انسان عاش قضاياها، و وعاها بقلبه، و أحس بما تعانيه من نصب و وصب، بروحه، و بأعمق مشاعره. فانطلق ليلبسم جراحها، و يداوى كلومها، و يبث فيها روح الحياة، و يزرع فيها بذور الخير و العطاء فى عمق وجدانها، و فى صفوة و خالص وجودها. انه الإمام الباقر، باقر علوم الأولين و الآخرين، صلوات و سلامه عليه. ۷ / ج / ۲ / ۱۴۱۶ ه. ق. ۳۱ / تشرين أول سنة ۱۹۹۵ م. ش. جعفر مرتضى العاملى [صفحه ۱۳]

الى مكتبة أهل البيت العامة فى النبى شيت

نعم النداء نداؤكم الى تناول حياة و سيرة الإمام الباقر بدراسة تظهر كم هو جليل فى الحقل العلمى الذى رهن عمره كله فى خدمته و تركيزه أساسا لكل تقدم و فلاح تنشدهما الأمة العربية. الحق يقال أن الإمام الباقر كان تصميما بالغ الأهمية بنقل الأمة، بما فيها الامامة، الى حيّز من الحركة الفاعلة، و التى هى وحدها الناقلة المجتع – برّمته – الى الفهم، و الصواب، و التحقيق. أن العقيدة الاسلامية، بكل ما فيها من حق، و خير، و تبشير بمعروف، هى التى تشدد على طلاب العلم يشرحها طاقات هداية، و يعمقها – فى الحجى – نورا، و يرسخها سجايا. ستكون سيرة الإمام – إذ تتوضح ملامحها و أهدافها – معبرة عن العقيدة بالذات، و هى التى تتطلبون أنتم تخصيص دورة عنها تكون مضمومة الى العمل المطلوب. ان السيرة و الدورة هما فى انضمام يشمل كامل حياة الامام، فإذا نتوفق فى تظهير السيرة، تكن قد أتينا – ضمنا – على الدورة المطلوبة، و السيرة المنشودة. أرجو أن أكون قد لبيت نداءكم الكريم بكتاب جديد عن الإمام المالىء حيزا وسيعا من بالى، و عساها مكتبتكم العامة تمتلىء بما هو نفيس من سيرة الإمام، كما و أن مدينتكم الصغيرة النبى شيت تستحق أن تجمع [صفحه ۱۴] الى موائدها كل المشتاقين الى ترويض النفس بالقراءات الغنية، و اقبلوا شكرا صادقا مع مؤلفى

الجدید و عنوانه: الإمام الباقر نجی الرسول. بکل اخلاص سلیمان کتانی [صفحه ۱۵]

الکلمة الأولی

أیها الإمام الباقر یا نجی الرسول أیها البحار المدعو الی الغوص الکبیر. من أنت واقفا علی شاطیء ممدود؟. تأخذ الیمّ بجفنین غارقین فی نصف نعاس، فوق عینین غائرتین فی ضجیج من مدی!!! هل أنت تستشرف أعماق اللجج، بقدمین حافیتین مغروزتین فی حیز من رمل؟ بینما هی اللجج أبعاد غائرات، تعلو بها و تهبط محامل الموج! أم انک الواقف المطرق، تتبصر بحوملات الأثقال، بکشح ضامر مرکوز فوق ساقین من وصب؟ انما الأثقال کالجبال الراسیات، تتماسک بها مجادل الماء من الأعلی الی الأسفل، فی عملیة من توحید ادراج المتون بأعماق السکون!. ولکنک أنت المستشرف و ان تکن مطرق الرأس و مغمض العینین من دون أن توهن و من دون أن تهاب، و أنت المتبصر المتبصر، ولن تدهی بارتیاب!. فالخط خطک مبنیا علی مقالب الأدراج، لیس له الا التقصی عن کل باب تعرقل الضوء عنه غلطة المزلاج! فالأبواب – فی الشرفات الزاهیة – هی فی انفتاحاتها علی المطلات الرخیة، تحمل النور الی أرجاء القصور، [صفحه ۱۶] و لا ـ تحرمها من دعابات الصبا و مناجیاته الندیة!. انها الأبواب المحکمة فی ترکیز قواعدها علی المدرجین! تلبی فی مدرجها الأول – انفتاحا علی تموجات النور، و انعطافات النسیم، و تستعصی انقفالا – فی مدرجها. مدرجها الثانی – عندما تلج علیها الغضبتان: غضبة الاعصار، و غضبة اللص فی ادلاجه المارق الخارج من عب شیطان. هنیئا لک أیها النجی البحار خط عریض شددت العزم منه فی الغوص المقعر، انه الخط المجدول فی مضامین الانضباط، وقعت علیک الآن مجالاته فی مدی الغرف و الجمع و التفجیر، و هکذا رحت تبقر الأرض فی سبیل استخراج کنوزها المتسترات، و رحت تشق میاه الیم تکشیفا عن الدر الهاجع فی قعر العباب، و کذلک الجو فوق رأسک، و هو الوسیع بمهابة ربک الأعلی من کل علو، و الأجدی من أی صواب، فانک رحت الیه – تقیا، تقیا – تفتق تحت کرسی ملکوته آیات و آیات، جمعها فی قرآنه من فیض ربه فی الرحاب، نبیک الکریم الذی هو جدک البعید المرامی و العزیز الصفات، لتکون قوتا لأمته الغرثی، و لکل أمم الأرض جمعاء، یوم تسمو بها الآیات من حضیض الذل، و الجهل، و الحیف الی الجنان السموات. و خطک العریض، یا حلقة فی الخط العریض، هو من أتقی و أنقی و أبقی ما انشد فی عرض الخطوط، فهو تمثیل الصیانة، و الحصانة، و المتانة فی خط یرسخه العرض کی یشرق به طول الامتداد. جدان لک یا ابن زین‌العابدین، سهرا لیلا عریضا لا ـ یقاس بالسنین، علی ضوء الرسالة المنزلة من خلف حلقات السنین، و هی الوحیدة التی وجداها تجمع الأمة إلی حقیقة الوجدان.... و ما کاد یطلع علیهما فجر السهر، حتی کانت بین أکفهما خیوط الزنار مجدولة علی خصر أمة تعبت کثیرا من لهاث الهجیر!. [صفحه ۱۷] لیس الزنار یا سیدی المصداق، و أنت ربطة فیه، الا حبل الامامة، انه الحبل المفتول علی مغزل الرسالة، فی کل نسلة منه حرف من روح آیة.... أما المراس، و أما المران المشتق من لحظات القراءة، فإنهما فی حقیقة الضم الی رجاحة الرهان؛ فالإمامة تعب آخر فی حقیقة السهر المجدی لنقل الخط العریض المکثف إلی امتداد مثمر، تنبض به خفقات الصدور – و إنها الامامة فی لقاحات الوعی، تکسبها الممارسات علما جدیدا، و سهرا عتیدا، من أجل دفع الأمة – بالانسان – الی یقظات وسیعة، لا یحققها الا العلم، و الفهم، و صدق الرشاد، و انها الرسالة – جهد جلیل و سدید – تتماسک بها الأمة و تبنی بها خلودا مجتمعیا کریما تتمتن به بنیة الانسان. و انها الامامة بتحدیدها الحصری، و ترکیزها البنیوی، و تسدیدها المعنوی، فإن الزمان أعجز من أن یحصی لها النبضات – أو بالأحری المبتکرات – لأنها اکتمال المجتمع فی الفرد، و انبثاق الفرد من حفیظة الأمة التی هی مجتمع حی و متکامل، تعززه الرسالة بالعلم الصحیح، و الصدق الوحید الصحیح... کل ذلک، فی مطلق شموله، هو تبشیر و عزم الرسالة فی تحقیقها منهجها العظیم، لیکون الانسان متینا فی حضن الحیاة الکریم. انها الصفات، و الممیزات، و الانجازات فی مجمع التجرید سیقوم بها امام بعد امام، فی منطلق التمثیل و التحدید، و اماما عن امام ستتم لها – فی المجتمع – روعة الترسیخ، و روعة الترکیز... و عندئذ، فالأمة کلها وحدة ایمان، و وحدة حق، و وحدة اخراج. لن یکون الزمن الآتی وقفا علی قرعات الثوانی علی عقارب الساعات، انما یکون رهنا بلمسات النهی،

تختلج بها أجنة الأرحام، فتلد أجيالا جديدة، وسع لها العلم جنبات الحق، و جنبات الخير، و جنبات [صفحه ۱۸] الشمم! ستكون الصفات الكريمة هذه حميمية فى رزم الشمائل، لأن المعنيين بالتعهد الرصين، يتولون زرعها فى خلايا النفوس، و فى طويات الضمائر. ذلك هو الخط المرسوم فى خلوات الريادة، أصابك منه أيها الإمام الباقر سهم بهى؛ فأنت للعلم السنى، تفتش عنه فى مخابئه، حتى يتكثف و يتفجر، و هو وسيع فى حقول الامتياز، تحتاجه الأمة كيفما اتجهت بها الخطوات، و من دون التحامه فيها، لا قرار لها و لا ثبات، فهى بحاجة اليه، شرط أن يكون نظيفا من كذب و رياء، و هكذا كان لك أن تصدق: فى الحديث، و فى الفقه، و فى نباهة التفسير، و أن تحفظ الآيات الكريمة سنادا لك فى قولة الحق و ايقاظ الضمير؛ أما العلم الآخر، فانك سعيت اليه تجمعه من حيث نامت عليه الظنون: فالكيمياء، و الفيزياء، و الطبابة، و الحساب، و كل الحواشى الرياضية و الهندسية فانها المتوافرة فى خزائن جدودك الأعلين، تنام على تمددات بكر، تفاعل بها آباؤك و أجدادك الأقدمون. انهم - بزخمها الهندسى - العلمى الفاعل، خططوا و بنوا بيوتهم، و قصورهم، و شوارع مدنهم، و صناعاتهم، و زراعاتهم... فكانت لهم - على سبيل المثال - بابل، و نينوى، و شنعار، و الشام، و مكة، و الكعبة المكرمة، و سد مأرب، و قصر الخورنق، و الحدائق المعلقة... و لقد كان لهم أن نظفوا الأرض ما بين النهرين - دجلة و الفرات - من و حول الطمى الخانق، كما حرروا - فى ما بعد - أرض مصر من طمى النيل - و كان لهم - على سبيل التذكير أن نقلوا الى أثينا، و روما، و جندبسابور، ما علم الغير هناك تركيز الحضارات، اقتداء بما حققه العلم، و الفن، و الأسبقية المتحضرة فى دنيا سومر، و كامل البقاعات العربية المصطفة على عرض التخوم. ليست زهيدة أيها الإمام الباقر حصة لك تقوم بها فى سبيل جمع العلم من أوتاده و نشره على اعطاف الأمة التى استفاقت من استكانتها و لما تنشغف بعد. ان الجامعة الوسيعة التى ألهب تياراتها جدك المستهيم [صفحه ۱۹] بتأجيج الحق و النبل فى عالم الانسان، هى فى شوقك الحثيث بأن توضح معالمها، و تأخذ منها ما يقوم جهدك، و يسدد عزمك فى المثابرة و التوسع، لتكون لك فى يثرب مدرسة فرعية و مشتقة من الجامعة الأصيلة تستكمل مواردها الفكرية و الروحية، سواء بسواء، بينما تكون العلوم فيها قواعد نور تفسر الخطوط و تركزها على مناهجها الأصيلة. ان تلقيح الفكر بسنابل العلم المدبج، يوسع موائد الأمم، و يطهر حضاراتها. و ينمى الخير فى الانسان، و يشهى المعروف و يعقم المنكر. شكرا لك أيها السيد الإمام الباقر، تأخذ الى عاتقك ما أوكل اليك. فالمدرسة التى تعهدتها فى يثرب، هى فرع من جامعة، تنال منها النور و تكمل لها الحدث. ان ابنك الإمام الصادق، سيستوفى منك، و بين يديك، شروط الإمامة، فى حقيقة المثابرة و صحة المران، و سيكون له امتداد آخر فى التذكير، و التوسيع، و التحقيق، عسى الأمة تستنير - مع طالع الأيام - لتجد أن العلم اذ ما يعتم عليه، تيبس مواردها، و تحصد - هى الأمة - جوعا لا يكون له اسم غير الهوان!!! [صفحه ۲۱]

المقدمة

ان فى الكلمة الأولى الموجهة الى السيد الجليل الإمام الباقر ما يشدد الظن بأن الرجل العظيم الذى هو محمد بن على بن الحسين بن أميرالمؤمنين الإمام على (ع) هو حلقة متينة من حلقات السلسلة المتدرجة على خط الامامة، و هى فى خلدى: مجتمع و أم و حقل صيانة. لقد أشار اليه اللمح - كما سيشير التبسط فى التوضيح المحلل و المعلل - بأنه رائد من الرواد الكبار، عرف كيف يعالج القضايا الفكرية - الحياتية - المصيرية، و كيف يحيطها بالتعهد و الدراية حتى يستقيم لها حق و أود، و يستمرّ بها نقاء و رواء. ان الخطوط التى لمحتها هذه الكلمة، بما قدمته من رموز أو مضامين، تكتفى بالتدليل الى أن هموم الإمام فى سياسة الأمة قد انحصرت - بنوع مميز - فى التدريس و ايصال العلوم، بكافة حقولها، الى الأذهان، و بذلك يكون الحاكم قد اطمأن بأن الحكم هو له وحده فى بسطة السلطات، و تعهد الأحكام، و ادارة الدولة... غير أن الحقيقة الصارخة تصرح بأن السياسة الصالحة لن تنال مجتمعا من مجتمعات الانسان ما لم يحدد معالمها: الفهم و الوعى و الادراك. ان الثقافة وحدها هى القمينة بامتصاص المعايير المبذولة فى التوجيه و التهذيب و صدق الانصياع، و لن يكون غير الاقتناع ملما بوضوح البث، و تلك هى الثقافة العامة التى تعين [صفحه ۲۲] المضامين و

توضح الأهداف. ان المجتمع – فى الرفاهية تلك – هو المسترشد بالحق، و المستنير باليقين، و عندئذ – و لا شك بصحة الافتراض – فالحاكم هو المنبوذ إذا تاهت به قدمه عن الدائرة المستنيرة، ان فى الصواب شمسا تدل اليه، شرط أن يقوم العلم و الفهم بجلوة العين من قذاها. ليس للبحث الآن مجال للتوسع فيه و تعزيزه بالشروح الناطقة، سيكون لنا – و نحن نغوص فى سيرة إمامنا الباقر – ما يجعلنا نأخذ منه – بالتدريج – مصداقية القول و مصدقية الاتجاه، و ها نحن نلمح مسبقا عنه بأنه ابتعد عن السياسة التى يخوضها الحاكمون و هم على الكراسى المدبجة بذهب و تارج و صولجان، وراح إلى بهو خاص له، و الى مسجد مشرع الأبواب، لجده النبى الرسول، يجمع التلاميذ المتشوقين الى المناهل، يسكب فى أذهانهم و ألبابهم، قطرات قطرات، مما أدخره فى خزائن نفسه من علم، و نور، و حق و صواب. لقد صدق الحاكمون الرجل و ما كذبوه فى تنازله لهم عن سياسة تخولهم حق التصرف بالأرزاق و الأعناق، و من العجب العجاب أنهم لمحوا تخطيطا عنده لغد تتقدس فيه الأرزاق و تتحرر فيه الأعناق، ولو كان لهم أن يلمحوا، لما كان لهم أمس من ضياع، و غد من غباء، أو يوم من ظلم بلا فجر من رجاء. منذ الزمن الأول، و الجزيرة العربية تتلملم على تسوقات النداء، و تحققت لها على يد النبى العظيم آيات النداء، و تنزلت لها الآيات و التمت فى كتاب راحت تقرأ فيه كل ما هو موزع على جدولين: جدول للحق، و جدول للباطل. و هو وحده المعروف، و هو وحده المرجو فى لمة الشمل لمقابلة الفجر و استقبال الأشعة، و الباطل هو الشر، و هو وحده فى سحنة المنكر، و هو وحده المخزى فى تفتيت الجماعات ورميها فى بؤرة الخيبة. وراحت الجزيرة كلها تقرأ أيضا فى الكتاب: أن العلم وحده منبت [صفحه ۲۳] السنابل، و صانع الطحين، و مرويه فى عملية العجن، و مرققه على لوحة الفران، و مشهيه خبزا على المائدة الكبرى التى هى الأمة المثلى الصالحة لأن تكون هديا لكل أمم الأرض. أترانا وصلنا الى الدرب الذى اختطه الإمام الباقر فى تنحيه، عن السياسات المعوجة الضائعة عن تعهداتها السليمة؟! ولكن العلم الذى راح الإمام الآن الى معالجة شؤونه، انما هو – أساسا – من مسؤولية المتولى ادارة الأمة فى جميع شؤونها الحياتية، المادية و الروحية على السواء، و ذلك ما فات الأمة منذ ما يقارب العشرة عقود... لقد تربت لها الخطوط الامامية للقيام بكل ما يلزم من تعهدات، و كان العلم من أجلها فى البروز و التعهد، لقد قام الإمام الباقر بتنشيط مدرسته الباقرية باعتبارها استئنافا لنشاطات أخرى كان لأبيه الإمام زين‌العابدين أن عمد إليها سدا لفراغ رماه فيه حزنه الكبير على أبيه الحسين سيد المستشهدين! و إنها ذاتها المدرسة الأولى التى رسم أساستها ركيزة الأئمة الإمام على أميرالمؤمنين. و لا الإمام على تمكن من تتميم التعهدات المرتبطة بخط الامامة، و قد لبعت بها دعابات السقيفة... ثلاث سنوات عجاف شلت عهد الإمام و ألقته صريعا على بوابة المسجد، يختزن العلم كى يفهم المتخبئين خلف حيطان الجريمة، بأن الشر ليس نصف الكلمة، ليكون الخير نصفها الآخر – و كذلك الاذعان ليس نصف الكتاب، ليكون العصيان نصفه الآخر!!!. فالخير و الشر ليسا الكلمة البهية... انما الخير وحده هو الكلمة البهية و العصيان و الاذعان ليسا الكتاب المرجا، انما الإذعان وحده هو الكتاب المرجا. لقد ألهيت كثيرا مدرسة الإمام على (ع) عن تركيز ذاتها، و توسيع فروعها، و هكذا بقيت نائمة فى ردهة الانتظار أما الإمام الحسن، و قد عاد من الكوفة إلى يثرب، بعد أن لملم الأمة و رأب صدعها من الانفراط، فإنه [صفحه ۲۴] لجأ الى مدرسة أبيه ينشط تياراتها النائمة على مهد الإمام الصريع، ولكنها تخدرت بالسم ذاته الذى انتقعت به عروقه الزكية... إنه الشر الذى هو نصف الكلمة عند معاوية، عطل به – هذا المعاوية – خيرا يتمرس به الإمام الثانى بادعانه لكل ما جاء فى آى الكتاب. وحده الإمام الحسين – بعد مقتل أخيه الحسن بالسم – وسع المدرسة الطالبية و مهرها بالدم، ليكون العنفوان – بدوره – مادة من مواد التعليم: كالحساب و كل العلوم الرياضية، و كالجغرافيا و كل السهوب الهندسية، و كالفيزياء و كل المعادلات الكيميائية، و كالفقه و كل المفازات الفلسفية، و كالطبابة و كل اسعافاته الوقائية. أما الأخلاق، و ما يشوهها من المآرب، و الغايات، و ربط الدنيا بأحزمة لا هى من عزاء، و لا هى من رجاء، فانها بقيت وحدها حصة المتلاعبين بالكلمة، يفتتونها حروفا، و يجمعونها أهواء لا هى خير و لا هى شر، بل هى عقدة الداء! هو الإمام الباقر، يترصع لنا الآن فيه الرصيد. يبدو أنه لم يصطبر على الأيام حتى تنقاد له من تلقاء ذاتها، بل أنه تعجلها بذكائه و طول أناته، و بفيض من نباهة، و حكمة، ورواء، فجاءت طيعة بين يديه، مفسحة له فى الانصباب على تركيز و توسيع المناهل التى تحتاجها الأمة حتى تتخلص – رويدا

رويدا - من عطش فيه من الذل أكثر مما فيه من الحريق!!!. لقد قلنا - منذ لحظات - ان من فى يدهم الأمر، على عهد الباقر، قد أرضاهم انصراف الإمام إلى مهمة التدريس، و توسيع مدرسته بالفروع العلمية، و منها الجليل النادر: كالفيزياء و الكيمياء، و دروس الأشياء، و كالحساب، و الطب، و الجغرافيا، و ما شابهها من هندسة و رياضيات. الى جانب علوم أخرى تتنشط بها البصائر و الضمائر، كعلم الحديث، و التفسير، و الفقه، و الفلسفة. [صفحه ۲۵] إنها رائعة مدرسة الإمام الوسيعة و المريدة، يملأها من عمره بالساعات الطوال المجهدة، و تحتل من مضامين فكره، و روحه، و دمه و أعصابه، ما يجعلها قطعة من وهج حى متحرك، تنبض بها سقوف المسجد و حيطان المسجد، و كل الحصر الممدودة فى صحن المسجد. لقد لذّ للولاة هؤلاء، ولو كانت أسماؤهم هكذا مكرورة: مروان بن الحكم بن العاص، أم عبدالملك بن مروان، أم سليمان بن عبدالملك، أم يزيد أخوه الذى هو غير يزيد بن معاوية، أم ابن عبدالملك الأخير الأحول و البخيل و المشهور بهشام... أجل، لقد لذّ لهم كلهم أن يرمقوا الإمام غارقا فى زنزانته المدرسية، تاركا لهم وحدهم الحكم و الولاية، من دون أى ازعاج أو أى تشويش يتلاعب بساحات أو بزواريب يثرب، كما تلاعبت بها - منذ حين - ثورة الحرة. هنالك وال واحد - يا للنعمة - و هو من ذات الأرومة، طابت فيه السجية، و لانت فى صدره العريكة، دخل المسجد و الإمام فيه نصف رابض على حصير، يلقى الدرس و يعطفه من تفسير الى تيسير، و حوله صفوف من فتيان، و من كهلان، و حتى من شيوخ، و كلهم رضوان و كلهم ركع يصغون. لقد بهر الخليفة عمر بن عبدالعزيز بالدرس الخارج من بين الثنايا كأنه قطعة من صلاة، مع أنه حديث منقول من شفة الى شفة كانت تطرح السؤال على شفة الرسول. إنها نبذة قد يبدو أنها تقريظ لما يوقم به جهد الامام، ولكنها ليست لأكثر من التدليل عن صدق المواهب فيه، و هى الطائعة بين يديه، فى روعة البث و روعة الأسلوب، و هى ذاتها - فى صدق دفقها، و عمق مداها - تجمع له احترام الناس و ثقتهم به. و من هنا أن الولاة أنفسهم - و قد كرهوه - و منهم الظالم و منهم المستبد، و منهم الكافر العاتى، ولكنهم كلهم [صفحه ۲۶] سكتوا تحت ظل عينيه، لأن فى عينيه قبسا شبيها بما كانت تشع به عين الرسول. أظن المقدمة - و قد تداخل بها العرض - قد أوصلتنا بوضوح الى مبتغانا - و ها نحن نقرع الباب ليكون لنا سماح فى الدخول الى المحراب السنى. خطوة خطوة سنلملم الدرب فى الولوج، معصومين باحترام متين، و نحن نسدد النظر اليه: منذ أن أطلت به عينان ناعستان بالضوء الخفى، الى أن تعمض جفناه على المدى الآخر المنور، و قد وسعته بالعلم، و اضاءته بالفهم جهود له متنسكة للحق، و بالحق مقبورة. [صفحه ۲۹]

خطوط عريضة

اطلالة الشبيه

إيه يا أمعبدالله، يا أيتها الصديقة المفطومة عن كل عيب و رجس. لقد نقل اليك أبوك الإمام الحسن اسم جدتك فاطمة. فطابت فيك المزايا الناطقة، كما طيبك الفوح المقدس. فهنيئا لك هذا الفيض تتلملمين به و تنجبين بكرك عبدالله، و قد نطق به البهاء الذى أخذ به جده الإمام الحسين فلقبه بالباهر. و ها أنت اليوم تبتهلين بوليدك الثانى، و قد شع به سناء مختوم بأكثر من آية، مما جعلك مع هذا الصباح الشهى، تسجدين سجدة السر بين يدى عمك الامام، راجية اليه أن يكون قربك فى خشوع الذات، و ينتقى لهذا الوليد الجديد اسما نجيا، يكون مشتقا من هذه الملامح و من مثل هذا الضياء. لقد لباك الإمام تناديه بصوت من مهجة مفتونة بمهجة، و هفا اليك بشوق مبلول بحنين الصلاة، و لما اجتباه الطفل اليه، وقف مشدوها يقرأ الخطوط الدقيقة المنثورة على جبينه كأنها شعيرات من لموع النجمة الزهراء، تخفرها من فوق قمة الراس دويرات دويرات من شعر مجعد، كأنه حلقات من درع محبوك بالزرد، بانتظار وقعة تحصل فى الساحة المجهولة! أما عيناه الصغيرتان فكانتا مطبقتين على فحوى عميق كأن النور فيهما هو المخبأ تحت رقاقات من كسل، تنم عنه زوايا أربع، فى كل [صفحه ۳۰] واحدة منها اهتزازات خفيفة كأنها خلجة من هدآت الضحى، أو حبوة من حبوات الأمل،

لیکون علی الوجنتین مطاف آخر لموجات سخیة باللطف النجی الراضی بذاته، من دون أن تجتذبه الا بسمة خفیفة نادرة، أو نجوی ذکیة حائرة... هنالک شفتان یضج علیهما شوق ممتاز و ملهوف الی حزن ثری، کأنه صاعد من کبد تأبی أن ینز علیها ذوب الزعفران. لقد أخذت یا فاطمة الأم بما بدا من الإمام العظیم، و هو مستغرق فی قراءة الوجه النائم علی البحبوحة... و لکنک أخذت - بشکل حمیم - عندما رأیته یجبی الأرض برکبتیه و یثلمها بالسجود المکفوف بالرضا المؤمن. سکرت بما شهدت من الوله الصامت المتحرک الحی، و غرقت - من جدید - فی غفوة منسولة من الجو المبارک، یسبح فیه طفل مقمط بوشیجة من حلم و خیال. ولکن الوقت الذی طال علی تهیبات السکون، قطعت من هدأته، نأمه نجیة، نزلت فی أذن فاطمة الیمنی و هی تضم الطفل الی صدرها بالزند الیسار - و سمعت قول الإمام - کأنه النجوی الهابطة من خلف الغمام: کثیرا ما وشوشنا جابر بن عبدالله الأنصاری یا فاطمة. بأن واحدا من أبنائنا یمیزه شبه بجدی الرسول. و بعد غوص آخر - غاصه الإمام فی التقاسیم - عادت فاطمة تسمعه یقول: فلنسمه بالباقر. سیبقر العلوم و یفجرها حقا و هدی. [صفحه ۳۱]

الباقر

لقد تعجل الإمام الحسین علی أمالولید الجدید. و علینا نحن المتنصتین الی کل نأمة نأمت بها الأحداث، و تناقلتها ألسنة التاریخ، لیکون لنا - فی معرض الاصغاء المصفی - رأی مستخلص من صدق الوقائع، و موقف مبرأ من افتراءات الدس المبثوث بین حروف یهمس بها، فی بعض الأحیان، صائغو التاریخ!. قلت: لقد تعجل الإمام علینا بإفاضة اسمین علی الولید الجدید... لا شک أن الشبه بجده الرسول قد أکسبه الاسم الکبیر. و هو اسم محمد، أما أن یکون الباقر منذ الآن، أی قبل أن یفتح عینیه علی النور، و قبل أن تثغثغ شفتاه بحرف من حروف العلم الذی سیفجره فهما و حقا و تسبیحا، فان ذلک هو مما تعجل به الامام: علی الأم، و علینا، و علی الطفل بالذات، و لما یفتح عینیه بعد علی مساحات النور. علی الشبیهین بالرسول أن یکونوا - علی الأقل - مثل الرسول طاقة تفجر العلم حسبما تطلب منهم نوعیة التفجیر!. عفوک یا حسین. فأنت الأدری بالمضامین. و أنت الأصغی الی همس المسافات الجائلة فی دوائر الأبعاد... بالأمس، و لیس الأمس لدیک دولابا تکر علیه الثوانی و تذوب فی بحیرات الزبد، بل هو ترکیز الغد فی هنیهات الأمس، لیکون للزمن الآتی جذر مغروس فی کل یوم عشناه فی عمرنا، علی أن نکون قد ملأناه - هذا الیوم المعاش - فی ذواتنا، بکل ما [صفحه ۳۲] هو حق فی الحیاة، و بکل ما هو نور و صواب. هکذا هی الأبعاد تحت عینیک أیها الامام، زرعها فی باحات نفسک جدک الرسول منذ أن کنت فی المسجد طفلا- تعلو ظهره و هو فوق المنبر یوزع علی الناس: عینیه، و یقینه، و لهاثه... کنت تغمر - بباعیک - رأسه الأوسع من فضاء - ولکنک کنت تشعر و أنت صغیر - بأنک بهی کالفضاء و بهیج بهیج کعینی جدک، و هما تغوران فی عمق الفضاء. لقد مکنک جدک الرسول - و أنت طفل - من استطلاع الغد. و جعله جذوة فی یومک المفعم منک بالخیر و العطاء. من هنا کان لک بالغد - لا سیما إذا کان فسیحا فی صدر الزمان - اهتمام ممیز بالنشاط و الترکیز، باعتباره المدی الزمنی الصالح و الکافی للاهتمام بالقضایا الکبیرة، الفکریة - العقائدیة - الروحیة، و التی تنال منها الأمم القویة مناعتها، و حضارتها، و کل مقوماتها الحیاتیة الراشدة فی المجتمع الانسانی المتمکن فی الوجود. لیس بدعا أیها السید أن تری أبعاد الخطوط، فجدک العظیم، و هو المطوی فی یقین أبیک و طویته الأنیقة، هو الذی مهد لک کیفیة حفر الخطوط، و أهمیة قراءتها بعین تکشف الأبعاد و تستجلیها... و الأبعاد، هی الخطوط العریضة، و المرسومة علی اللوح العریض، فالرسالة - مثلا - هی خط طویل و خط عریض. و کذلک هی الأمة المخصوصة بالرسالة. و کذلک أیضا هی الامامة المرتبطة بالرسالة و بالأمة بشکل وثیق. و اللوح العریض هو الغد المسلوخ من طینة الأمس، یتطیب بها الزمان، و یطول عمره بما یتجمع الیه من الأعراف السلیمة المضخمة بالمناخات العقلیة و الروحیة، و التی لا یعیش بغیرها وجود الانسان، أو بالأحری وجدانه العفیف. [صفحه ۳۳] ان الفصل المفتوح الآن أمامنا، و عنوانه: خطوط عریضة، هو فی تخصیص البحوث و اضاءاتها بالجلاء عن کل ما قرأه الحسین فی تقاسیم حفید له، لیس فی محیاه الندی سوی براءة مثلی، قد تتخبأ

خلفها سمات منثورة فی شبه شعیرات نحیلة، جاءت بها، فی الخفاء من الأب و من الأم، سلیقة خلقیة مشطورة الی بطانة الرحم، عاش بها الجنین، و بها نما، و بها تلوّن. فلیکن لنا من مثل هذا النوع من التلمیح ما نستضیء به إذا اقتضت حاجة، و من جملة التلمیح أیضا أن نذکر أن للطفل المسمی الآن محمد الباقر ثلاثة جدود علی خط أبیه: الإمام الحسین، و الإمام علی، و النبی الرسول... و له ثلاث جدات علی ذات الخط الأبوی: شهزنان سیدة الأمیرات، و فاطمة الزهراء، سیدة النساء، و الأمینة خدیجة سیدة المخلصات، و إن المولود الجدید لن یرتبط بخط الامامة قبل ثمان و ثلاثین سنة، أربع منها لا تزال مرهونة بجده الإمام الحسین، و قد قضاها مهموکا بتعبید الطریق الممدود بین مکة و کربلاء الکوفة، و أخیرا مشاها - خطواته المرسومة - و مهرها بدمه الأزهی من الأرجوان، بعد أن سلم ابنه علیا مقالید الامارة، مسجلا علی صفحة التاریخ ما یسمی برفض الذل، و تمجید العنفوان. لقد تکحلت عینا محمد الباقر - علی مدی عشرة أیام متعاقبة فی ساحات کربلاء - باثمد أحمر، لم یفارقها مدی العمر. بعد أربع و ثلاثین سنة من هذه اللحظة المصبوغة بنبل الدم، أغمض عینیه ذلک الذی لقبه جده الرسول بزین‌العابدین، و انتقلت خلافة الرسول إلی فتی مفتوح الجبین، اشهب الصفات، أصهب، نقل إلیه جده الرسول شوقا من أشواقه المیممة بالعلم الوسیع، و العلم الرفیع، و العلم المنیع - لقد حمل إلیه لفحة الشوق البلیغ، رجل صحابی سجد [صفحه ۳۴] طویلا بین یدی الرسول، و تبارک کثیرا بلثم بناناته - انه جابر بن عبدالله الأنصاری. لقد أطال الله بعمره حتی شاهد الفتی، فاحتضنه، و اشبعه لثما - و هو یقول له: «جدک الرسول یقرئک السلام، فأنت شبیه به، و لقد ألح علی لأبلغک بأنه لقبک بالباقر». [صفحه ۳۵]

جابر الأنصاری

انه جابر بن عبدالله الأنصاری... تعرفت إلیه بعد إن سمعته یتکلم فی جلستین کلاما قصیرا، فاکبرت الکلمة الصغیرة فی فمه لا یسکن أبدا صداها. کانت الجلسة الأولی فی بیت الإمام زین‌العابدین: دخل جابر و الإمام ساجد یصلی، فوقف خلفه فی خشوع طویل، و انتظار بلا ملل - ولکن الإمام الغائص فی السجود، کانت صلاته أطول من حزنه علی أبیه الحسین شهید کربلاء. و انتهت الصلاة - بعد وقت طویل - مبلولة بدم أحمر! تقدم الزائر جابر و سجد بین یدی المزور المبرور، و هو یقول: یا ابن رسول الله أما علمت أن الله تعالی خلق الجنة لکم و لمن أحبکم، فما هذا الجهد الذی کلفته نفسک؟! البقاء علی نفسک یا سیدی، فإنک من أسرة بهم یستدفع البلاء، و بهم تستکشف الأدواء. لقد کان کلام جابر بعید الغور. لقد قصد اسکات حزن یضنی، و ابقاء إمام مسؤول عن رعیة... أما الجلسة الثانیة فهی التی رأیناه فیها منذ لحظات، ینقل وصیة الرسول الی حفیده ابن زین‌العابدین: [صفحه ۳۶] «جدک الروسل یقرئک السلام، فأنت شبیه به، و لقد ألح علی لأبلغک: بأنه لقبک بالباقر». ان فی التبلیغ شهادة تفصح بأن حامل التبلیغ ضلیع بمقاصد الرسول. و أنه نعم المبلغ و نعم الضلیع... فهل یکون لی أن أصیب من مقاتله، أو بالأحری، بعضا من فضائله و مواهبه إذا قلت فیه مثل هذه النبذات؟: انما هو جابر: صحابی صادق و ممتاز. أنه أروع ممن جاء علی صف الأنصار. و هو شیخ وقور مدید العمر. بریء کأنه طفل. ودیع کأنه حمامة. ذو رأی و حکمة کأنه زهیر بن أبی‌سلمی. ثابت کأنه صندید. ینقصف السیف فی یمینه... ولکنه لا یرمیه. قبضة السیف تعشق کفه... و هکذا البسمة تعشق ثغره... و یری الأبعاد کلها... و یشهد لکل واحد منها بکلمة قصیرة. فاذا ما قالها صمت و تبسم. عایش الرسول العظیم. [صفحه ۳۷] و أخذ منه قوت عمره... یا للرسالة نزلت فی روعه زرعا... ألا- نراه: زرع فی الأمس، ما یعیش به الیوم؟ [صفحه ۳۸]

الرسالة

و الرسالة - انها خط من خطوط الطول، لیکون لها - من مداها - ظل یتألف منه خط العرض. أما خط الطول فمعناه غوص فی عالم الروح، و استنجاد بقوی الفکر، و استغراق یوجه الشوق الی مجالات الیقین، و استغاثة بالخیال یقرع أبواق الیقین المفتوحة علی سرمد

بهائى يستنير به انسان الأرض. ان الله مخبوء فى الرسالة تبسط للانسان كل ما أفرغه عليها الغوص فى كنه الوجود الممدود على كف الخالق الذى هو كل روعة الوجود. ان الله فى حرف الرسالة: فهو الوجود و كل الوجود، و هو الجمال و كل الجمال، و هو الكمال، و هو الحق، و هو الخير، و هو - وحده - المثال و المآل. أما الخط العريض فمعناه انتقال الرسالة من حالة الغوص الكبيرة الى حركة التبشير الصغيرة، و هى الموجهة الى الإنسان. ان الغواصين هم أولئك القلائل النادرون، يتناولون الغوص وصولا الى يقين يوجهون به الانسان و يبنونه أمة راشدة، و مجتمعا سليما... انهم المنتهون الى يقين بأن الله هو المهيمن على الوجود: فإذ لا يرى، تتأكد رؤيته المليئة به. فالفكر يدركه، و ما يقع تحت العين أو ما يفوتها، يدركه. و ما يلمحه الخيال أو ما لا يلمحه الخيال، يدركه، كما و إن انتفاء الفراغ يدركه. [صفحه ۳۹] و كل ما يغيب عن العين، و عن الأذن، و عن الحس، و عن مطلق المسافات، يدركه... فليكن المصدر، وليكن اليقين. وليكن الوحيد، و فى مطلق الحال فليكن الدين. ولكن الغوص الذى غرق فيه الأمين محمد، أكان خمسا و عشرين سنه فى عب غار، أم كان - على مدى العمر - فى قلب مجتمع الجزيرة المشحونة بالنار، و بالغبار، و بعدد لا يحصى من مئات القبائل السائبة بين خطوط النار و زحمات الغبار، انما هو غوص كان مميزا عن أى غوص ساح فيه الأسبقون. و لم يكن الأسبقون - فى مطلق الحال - من غير سلسلة من خط الجدود، كانوا ينطلقون أفواجا و أفواجا من خطوط النار فى قلب الجزيرة، و من خطوط الغبار، ليكون لهم التحام بكل الأرض المفتوحة أمامهم على عرض الشمال امتدادا من شاطىء المتوسط، على طول السهول المكفوفة بالجدار العالى المنتصب بامانوس، و زغروس و البختيارى، انصبابا - مع دجلة و فرات - فى الخليج المشترك، بشاطئيه العربى و الفارسى... ها هى الأرض التى كانت تتقبل الأفواج العربية المصفوفة على طول الجنوب - إنها الأرض اللبنانية - الفلسطينية - الأردنية - الشامية - العراقية المجموعة باسم الهلال الخصيب. لقد عين الخصب الاسم و كتبه أيضا - بحرف من حروف الأبجدية الفينيقية الكنعانية، و هم فوج من الأفواج المنتقلة و النازلة فى الأرض، و المنصهرة فيها. و المشتركة مع الراسخين من أبنائها المنتجين فى ذلك الوقت - علما، و فلسفة، و حضارة، و الذين كان منهم غواصون فى كنه الوجود، و فى الاقرار بخالق فى يده وحدة الكون، و نهاية المآل، إن ما جاء فى التوراة، و فى المسيحية الحديثة مصداق لما فاضت به الفلسفة فى الأرض السورية - الآكادية - السومرية، و هى التى اخلتط فيها: البابليون و الآشوريون و الأموريون و الآراميون و الكنعانيون الفينيقيون، ما عدا هؤلاء السابقين الذين لم يلمحهم التاريخ. [صفحه ۴۰] و كذلك وصل فيض هذه الفلسفة العريقة، فاصاب منه كل الجوار القريب و البعيد: أكان من الفرس و هم كتف شرقى ملصوق بكتف غربى، أم كان فى غربى البحر البارز بجزيرة قبرص التى انتقل منها الغيث إلى من هم المسمون بالأغارقة اليونان و من أقاربهم رعيل الرومان، بحيث علمتهم جميعهم - قبرص - برى المجذاف و شد السفينة... أم كان فى المقلب الآخر الساجد بفراعنته تحت اقدام النيل - إله مصر - و قد حررته من طميه هندسة نشأت فى أرض ما بين النهرين تخلصت بها الأرض من طمى دجلة و الفرات. لم تغب الفلسفة تلك عن استيعاب الأمين محمد، و هى فلسفة قد اشترك فيها كل أجداده هؤلاء و انغمروا بعبابها و هى التى حفرت فى يقينه حفرها السليم، و نزلت ذكرا استشهاديا فى حروف رسالته، و لم يقتنع الا بمؤداها التوحيدى المؤمن بإله قادر رحيم جبار... ولكنه - فى النتيجة الملموحة - راح الى رسالته يكيفها و يشبعها بكل ما يلائم انسان بيئته بنت أرض الجزيرة المشوية بالجفاف - إن الانصباب هذا على توجيه الرسالة و تلقيحها بالملائمات هو الذى ميز غوصه، و ميز عمقه، و عين مداه، مع العلم أن هذا التلقيح المقسط، لم يخرج الرسالة عن جوهرها التوحيدى - الإنسانى - الأصيل -، بل شدها بجاذبية عالمية مفتوحة، لمت الوسيع من مجتمعات الأرض الى الحضن الاسلامى الرحيم. لقد كانت الحاجة ملحة فى الجزيرة الى كتاب يلملم قبائلها بين حروفه، فإنسان الجزيرة كانت تطارده الفوضى فوق فسحات الرمال: فهو عداء لا يستقر به شبع. و لا يستريح عليه نظام. من هناك كان له نزوح يكشفه التجوال، و يفرضه الترحال... أما الأمين محمد، فهو الغواص الململم الانسان الى كينونة أخرى تلحمه بذاته - و من ثم - بوعى القيمة [صفحه ۴۱] الإنسانية فيه، ليتمكن من الجلوس الى مائدة يبسط عليها طعامه و شرابه... من هنا ان الغواص قد تمكن منه عمق الغوص، فجمع الكتاب و وفى الرسالة، و انضوى الى الأفق الغائر فيه: رسولا و نبيا!!!. لم يكن لنا من هذه البسطة الموجزة الا محاولة تبيانية عن

مدی تعب طویل رهن الرسول الکریم جهد العمر من أجل تحقیقة لرفع قیمة الانسان فی الجزیرة، فیکون له مجتمع صالح، و أمة ملمومة بالحق و الهدی. لقد رأی النبی العظیم أن تعبه قد أثمر. و إن الرسالة التی تثبت بها الکتاب قد حرکت الوعی النائم فی الغفلة المشلولة، و ها هو المجتمع یفیق الی حقیقته المفروضة فی الوجود. و لن یلزمه الا عقود من السنین معدودة، یتمرس فیها - بالتدرج - علی حقیقة الوعی، و حقیقة السیر، و حقیقة جلوة العین من رمدها المزمن!. لقد أصبح تخلیص الأمة من کل ما کان یضنیها من معوقات، همه الکبیر، حتی لا یهرق التعب من دون أن تستفید الرمال من الدم المهراق. لقد کان یتمنی الرسول أن یعیش أکثر من مئة سنة حتی تتم بین یدیه حلقات التدرج فی تمتین الوعی و تنظیم البلوغ... ولکن الأشواق لا ترویها الأحلام، و لا یشبعها فرط التمنی... و هذا ما کان یلح علی الرسول بأن یأخذ الحیطة و یبنی بها جدار وقایة لرسالة یجب أن تصان حتی تستمر - هی - بالصیانة. ان الأمة بالذات قد أنجبت عبر تخطیها غیاهب القرون و دهالیز الحقب، رجلا منها، مصمدا من مساحتها، و من مسافاتها المسحوبة من مشقات الدروب: انه ثمالة الکأس التی شربتها، و انه قبضة الرماد الناتجة من حریق أوصالها فوق المحطات التی بلغتها فی مشیها الحافی، و انه الجذوة النابتة من حریق کل عواسجها التی اقتلعتها من حقول التجارب!!!. [صفحه ۴۲] ان الأمة بالذات - یناجی نفسه الرسول الهلوع علی أمة ستعود إلی خیباتها إن لم تعالجها الرسالة قاطعة بها اللیل الطویل - هی التی تستحثه الآن فی تعجیل تمتین الحیطة، بانشاء جدار حریز، یؤمن لها الصیانة القائمة علی حفظ الرسالة فی اسطواناتها المقدسة، و یجهزها بصف منیع من الحراس الأولیاء، یعززهم العلم، و الفهم، و الرشد، و السیاسة الممرنة و المتمرسة بالعفاف. لم یجد الرسول الکریم. و النبی العظیم، و الغواص الغارق فی لهاث الجهد، و الحریص علی أمة شتتها الضیم فوق مساحات الحریق قبائل قبائل، تستمطر سرابا و تشرب دمع السراب!!!. أجل، لم یجد الرسول الیقظان فی هلعه، الا تنظیما یطال الغد الکبیر زارعا فیه نتاج الیوم القصیر المحتاج الی مران أصیل و مراس طویل - و سیاسة حکیمة تصون الرسالة، و تصون الأمة، و توثق الغد بصدق الذمام ... ان الإمامة هی هذا التنظیم و هی زنار الأمان. [صفحه ۴۳]

الخط العریض

لیس اللقب الکبیر تقمط به الولید الجدید و هو فی حضن أمه فاطمة، غیر غزل من مغازل النجوی المدقوقة علی مکوک الخط العریض. و الخط العریض هو ذاته الزنار الذی سلخ الرسول العظیم خمسا و عشرین سنة من عمره اختلاء عمیقا فی عب غار، من أجل أن یغزله عریضا و متینا، یزنر به خصر الأمة، فیشتد حقواها و تمشی منیعة بانسانها السوی، فوق الدروب. و لیس الخط العریض غیر الرسالة بالذات ملفوفة بنعمة ربها للهدایة، و مکفوفة بزنار عفیف للوقایة و الدرایة، حتی تعبر خطوط المزالق الی وصول منزه و سلیم. فی الاختلاء المنزه تقبل النبی العظیم هبوط الرسالة. و قبل أن یخوض دروب التبلیغ و مشقاتها الجسیمة، کانت له خلوات جانبیة تحصل فی زوایا بیته المطهر، علی وشوشات یغمرها ظلام اللیل ، و مهابات السکینة، و همسات التأمل... من یمکنه أن یفترض أن مثل هذه الاختلاءات الطویلة، لم تکن تحصل بین رجلین تجمعها و اشجتان: واحدة من عقل و روح و أدب، و أخری من هم واحد و وثاقة فی الحسب؟ ینام فی صدر الرجل الأول و خلف عینیه لغز لا بد منه من أن یتفجر و یتفسر، و تنام فی بال الرجل الثانی روعة اللغز، علی مخافة أن تهرق الروعة (ان اللغز لم یتفجر و یتفسر. [صفحه ۴۴] من هنا أن الرسول الکریم ما وسع عباءته الا لیضم الی جنبه رفیقا له کأنه فلقة منه... سیکون لهما فراش واحد ینامان فیه إذا أعوت علیهما ریح من زمهریر... سیختلی به لتقویم کل خطوة قبل أن یتعثر بها الدرب الطویل... سیفجر به و معه لغزا تنام فیه رسالة تحضن الأمة و ترفعها الی سماء... سیزوجه من ابنته فاطمة، و هی فلذة من کبده، حتی یکون له - منهما - ذریة تثقف الأمة بالرسالة، و تحفظها الی یوم بعید. لیست قلیلة اختلاءات الرجلین العظمین، و هما: النبی العظیم و علی العظیم الآخر، و هی لیست المفترضة، بل المؤکدة الحصول، لأن الارتباطات الواقعیة، و کل الأحداث المصیریة التی حصلت، و یمکن حصولها علی الأرض - تشیر الی أن الخلوات تلک ما کانت تتم الا للتدارس فی الأمور الکبیرة، و اتخاذ القررات الحازمة، فی سبیل جعلها تسیر فی خدمة الخط الذی هو - الی حد عریض - خط الرسالة - ان الرسالة بالذات، و النبی الکریم

هو المدعو الى تمزيق الغلف عنها، لم يكن له أن يقوم بخطوة واحدة فى سبيل نقلها الى الأذهان، الا بعد اختلاء طويل بمن يثق به، يتم فيه الدرس و التخطيط، و اتخاذ القرارات. فلنسأل واقعة بدر، أو واقعة أحد، أو واقعة خيبر أو تلك المشهورة بواقعة الأحزاب... أية واقعة منها لم تدرس فى خلوة، و لم يمش اليها بقرار؟. بديهى أن لا نلجأ الى ما يثبت لنا أن عليا كان فى كل حين من الأحيان، نعم الرفيق، نعم الأمين، و نعم الوفى، و نعم المستشار... ولكن القول هنا ليس لاثبات الإمام على بأنه فارس المضمار، بل يتجه القصد الى النبى العظيم بالذات، بأنه لم يكن ليتناول أى بند من بنود قضاياه الملمة بشؤون الحياة و مراميها القصية، الا بعد أن يشمل هذا البند بالدرس و التمحيص فى خلواته مع نفسه و مع الأخص من مستشاريه، ليتم - على مهل - اتخاذ قرار الدفاع عنه بالكيفية المطلوبة، فاذا كان له هذا التصرف ازاء أية واحدة من آيات كتابه المأخوذة على انفراد. فكيف يكون [صفحه ۴۵] شأنه فى توضيب التصرف الملىء الاحتراز، عندما يتخوف من أفواج المقتحمين على تشويه كل الكتاب بما فيه من سور قبب، و بما فيه من حروف آيات؟... انه الكتاب... انها الرسالة... انها مجتنى العمر على مدى الدهور، و مدى الحقب... انها لمامة شمل الأمة، و انها زنارها الواقى من الانفراط. لقد كانت الأمة - فى حساب النبى العظيم - مهبط آماله، و هالة أحلامه - و ما كان له أن يرجو اثابة من ربه إذا تثبطت به الهمة عن كفكفة الأمة بأفياء الرسالة، لتكون هديا لأمم الأرض، و مثالا لكل واحدة منها: فى الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، فاذا تعثر بها الفهم و غابت عن مراميها، فما أتعسها - أمة - تخيب بها حروف الآيات، و تضيق عليها فتحات السور، ليكون - هو النبى - كئيبا كئيبا ستثقل عليه بلاطة الرمس، بينما تشتاقه فساحت الجنان!!!. كل ما فى الأمر أن هذا كله كان واردا فى تحسب الرسول، و لقد ازدادت وطأة التحسب فى باله، عندما راح يشعر بأن الأجل يدنو منه و بين يديه محفة مسحوبة من عمق الظلال! و الأمة التى سيتركها - وحدها - و يغمض عينيه و يغيب؟! من غيره سيغمرها بعين فيها مثل هذا العطف، و فيها مثل هذا النصيب؟! صحيح أنه جهزها بالرسالة، و صحيح أيضا أنه لفلفها بالكتاب... ولكن الرسالة - و هى حشو الكتاب - ليست مطلقا: لا آيات و لا حروف آيات... انما هى فى تفتيق كل آية من حروفها الصامتات و فى تعويهما بالروح حتى تضج بها الحياة، و تلتحم بها الكلمات، و تنطق بها السمات... ان فى كل حرف من حروف الآيات ظلا مسحوبا من غور، و غورا مشقوقا من فضاء!!!. و اثر ما يهبط الرسول من وقوفه و يغيب! فمن هو الواقف بعده؟ يمشى بالأمة فوق الدروب، و هو يفسر لها المعانى النائمة بين حرف و حرف من حروف الآيات!!! و بعد أن يصمت الرسول؟ من يخلص الكلمة [صفحه ۴۶] من صقيع الموت، غير العارف - مثله - أن الحرارة هاجعة فى الكلمة، و لن يكون لها سريان الا بعملية من وصل حرف بحرف، فينتفى الهذيان و تنتشى السور... أليست - هكذا - بزغة الضوء انبجاسا، اذ يلمس السلب و جنة الايجاب؟. و الأمة - فى ظن الرسول - لن ينهض بها رجاء، لا اليوم و لا فى أى غد آت، ما لم ينورها العلم و الفهم الموسع... و عندئذ، فالكتاب، بكل ما بين دفتيه، هولها فى مدارج الادراك، ينقلها - حثيثا - الى استطلاعات أخرى، يخف عنها مضيض الجهل، و يقوى فيها و ميض العرفان... و للعرفان الذائب فى حقيقة المعرفة و حقيقة الوجدان، معونات و معونات، تشفع بالانسان إلى سمو فى السلوك، و الى شبع فى المزايا، و كلها تبنى الأمة و ترجحها فى كفة الميزان. و العلم؟ من ينقله و يوسع أدراجه إلا الباحثون و المنقبون الفاهمون؟ ان فيه - وحده - الإلمام بكل شأن من شؤون الحياة، و على الأمة أن تنهل منه، و بقدر ما تنهل يبهو بها التحصيل. و الأمة - بالتفصيل - بحاجة إلى العلم يعلمها أن تزرع و أن تحصد،... و أن تبنى اهراءات تخزن فيها - ليوم القحط - ما تحصد. و هى بحاجة اليه يعلمها أن تقرأ، و ان تكتب، و أن تفهم ما تقرأ و ما تكتب. و هى بحاجة اليه يعلمها الفصل بين الحق و الباطل، فلا تأكل رغيفها الا عن صينية الأول، و تنبذه عن صينية الثانى، لأن الحق تأكله فتصفو عينها، أما الرغيف الآخر فسم يهرىء الأحشاء!. و هى بحاجة الى علم يعلمها كيف تمشى على الموج فلا تغرق، و على اللفح فلا تحرق، لأن فى الموج زبدا يعدله المجذاف، و فى اللفح حزاما يلطفه اليقين. و هى بحاجة الى علم يعلمها جمع الخيط من نسالته، ثم غزله، ثم [صفحه ۴۷] نسجه على مكوك تبرع فى برى عوده، فيكون لها - من جهد يدها - عباءتان: واحدة تلبسها فى يوم الهجير، و ثانية فى يوم الزمهرير. و هى بحاجة الى علم يعلمها كيف تحصى خطواتها فوق الدروب، و عبر البحار و عبر الرمال، و عبر المجاهل و الحدود... لأن فى ذلك كله هندسة ترتب لها شد نعالها نحو

الأقاصى، و ترسم بها جغرافية الأرض و مناخاتها، حتى تعرف متى تذهب، و كيف تجول، و متى تؤوب - و تعلمها على المدى الطويل: كيف ترقق المجذاف، و كيف تنجد السفينة... أما الأرقام فسيكون لها - تحت عينيها - رصف على اللوح يرقص به علم الحساب... أما الفلسفة، و الفقه، و ميسرات التفسير، و تفتيق الألغاز النائمة بين الحروف، فإن المنطق - وحده - يعلمها الخشوع لكل آية من آياته البينات. و هى بحاجة - بشكل مطلق - الى علم يعلمها كيف تطبب أجسامها فلا تنهشها الأدواء، و عقولها فلا تشعثها الترهات، و أن توسع مداركها بعلوم الفيزياء، و معادلات الكيمياء، ليكون لها شبه اطلاع على ما يحصل حولها فى خضم الوجود، من تفاعلات يأخذ بعضها برکاب بعض، كأنها من نهاية تحصل و الى بداية تعود، مع أنها تبدو مزيجا من نهايات و بدايات لا حدود لها غير السرمد. ان علوم الكيمياء بمعادلاتها التى لا- تحصى، تفسر اتحاد العناصر بعضها ببعضها الآخر، على مقادير معينة الأحجام و الأوزان، تعجنها الأرض بأمواه السحاب، و تشويها الشمس بدفقات أخرى من نار و ضياء... و هكذا يبدو الوجود كله فى سلسلة سرمدية من معادلات، ليس لها أم باثداء غير الكيمياء، و ليس للوجود - بشكل مطلق، بكل ما فيه من عناصر تتماوج و تتخارج بها المعادلات - الا تأمل خاشع أمام القوة العظيمة و المقدسة، و الممسكة بكل هذه العناصر، تملأ بها مدارج اللامنتهى فى [صفحه ۴۸] هذا الوجود... و ان الله - وحده - هو مصدر العلم المجرد، تمسح به الأمة عينيها حتى تستنير. هكذا نرى أن كل ما تحتاجه الأمة لبقائها و اطراد نموها قد جعله النبى الكريم هما من همومه الدائمة، و أحاطه بعناية مدروسة، تنال منها الأمة - لا فى يومها الحاضر و حسب - بل فى كل يوم من أيامها الطويلة التى يجهزها لها الغد. ان الاختلاءات المعمقة بالدرس، مع الذات، و مع على شقيق الروح و رفيق العمر، كان لها رصيد مميز بالتحسب، و الاحاطة، و بعد الرؤية، و صوابية العرض. لقد رأى النبى الكريم أن الأمة التى جمعها بجهده و سهره، سيضنيها الانفراط ان لم يتعهدها الفهم، و العلم، و السياسة الصادقة و الحكيمة، و كلها مدارج مدارج، لا يأخذ منها الا الذكاء، و المران، و التمرس الفاعل. الفهم نتاج العلم الصحيح، و العلم أوسع من المحيطات، و هو لا يستوعب الا نذرا فنذرا مع المدى الطويل الذى يبدو أنه لا ينتهى، و الأمة التى يليق بها عز الخلود، فلتوسع له حلقات المدارس، و لتملأ موائدها من ثراء حقوله، سيكون لها - بعد كل قرن من قرون السنين - ما يدل اليها بأنها صادقة فى تلمساتها، و أنها حية فى تعهداتها، و أنها بالحق و النبل تستعين و تستقيم. أما السياسة الصادقة و الحكيمة، فهى المتجردة من حقيقة الفهم المؤمن بأن الحياة هى الخير المروى بالجمال، و بأن السائس هو العفيف الذى لا- طمع فيه، و لا- بخل، و لا جشع، و لا ظلم، و لا عيب، و لا نكد و هو الانسان الصحيح المميز بالخلق المغلف بنعمة الخالق... ان السياسة تلك هى افراز الحق المكثف فى رجل يمثل رأس الدولة فى رعاية الأمة، و السير بها فى سبيل المراقى: بعدل، و مساواة، و حق، و نظافة، [صفحه ۴۹] و استقامة... ان المران الطويل، و التمرس المصحح برفقة خلف لمخلوف صادق فى عهدة الإدارة، يضمنان وصول جدارة القيادة من رجل إلى رجل عن طريق تسلسل الخلافة التى تكون صدقا موصولا بصدق... و ها هى الأمة - و الحالة تلك - ترتدى فى كل مرة عباءة جديدة من دون أن تشعر أنها غيرت زيها، و هى تمشى على ذات الطريق. و تم الرأى فى الاختلاء الرزين على تعهد الأمة تعهدا مركزا على اثنى عشر اماما، يكون ركنهم الخليفة الأول، و هو الإمام على متمرسا تمرسا كاملا بالمخلوف الذى لا يزال يرعى الأمة. [صفحه ۵۰]

الامامة

لقد اكتسبت الامامة مع الوقت معانى كثيرة لا شأن لنا الا بواحد منها و هو الخلافة - أما المخلوف فهو النبى لكريم بعد أن تحمله السحب الى الرفيق الأعلى، تاركا للأمة رسالة طرية العود، ستكون - من دون شك محتاجة الى مدربين يتعدونها بالرعاية حتى يمتن عضلها، و تتوضح مقاييسها، و تنجلى معالمها الناهدة بها من الأغوار. ان فى البحث السابق تلميحا مقصودا عن أهمية الرسالة و عن كيفية انبثاقها من جهد الأمة و من ثقل معاناتها فى الحياة، عبر المديد من الحقب... و ها هو الذى تجمعت إليه هذه المجاهيد يدرك أن الرسالة انبثقت من واقع الأمة الراهن، و من حاجتها الضاغطة الى لم شعثها من انفراط قبائلها، و توحيدها فى جدلة واحدة تنهض بها

الى الصف الاجتماعى المنظم. لقد أصبح لنا شبه اطلاع من اشارات البحوث الواردة فى مضامين ما مر بنا حتى الآن - على أن الرسول الكريم هو الطاقة الفاعلة و المستمرة فى تجهيز الجزيرة بكل مقوماتها الحياتية و الفكرية و الروحية على السواء. لقد قبلت - بعد جهد مضن و مرير - ما قدمه لها اليوم، و ها هى تظهر به - فى الساحة المحترمة - أمة ملمومة على ذاتها: دينها التوحيد فى ظل رسالة هى [صفحه ۵۱] جوهر التوحيد، و عليه أن يجهز لها ما يجب أن تقبله فى الغد، من مقومات ضابطة، تحفظ بها كينونتها الجديدة، و استمراريتها النامية بالتنظيم العاقل الواقى من ردة عقيمة تردها الى الأمس الذى كان شاردا بها من غيهب الى غيهب!. لم يغب زعماء سياسة الأمس عن عينه المبصرة، فإنهم هم ذواتهم لا يزالون بين يديه يختالون فوق الساحات المذنبة بغرورهم الأصفر، أنه يلمحهم يقرأون الحروف، ولكن الرمد فى عيونهم هو الذى يقرأ، و هل تصح قراءة بيضاء بعين يقرحها رمد؟!. و هكذا الأمة كلها المدعوة الى أن تقرأ: لقد تحرك الشوق الكامن فيها، و دفعها الى أن تقرأ. ولكن الجهل الهاجع فيها - من مخلفات ساسة الأمس - لا يوضح لها ما تقرأ. نذر قليل من فهم ما قرأته الأمة فى الكتاب فعل فى الأمة فعله العجيب، فكيف يكون الشأن لو ازداد هذا النذر من الفهم الى ضعفين، أو الى عشرة، أو الى مئة من الأضعاف؟ ان للأمة - فى نسبة مثل هذا المقدار من التفهم - مقادير أخرى كثيرة البهاء، تجعلها فى مكانة جلى من القوة و الصفاء... انه حلم النبى فى دفع الأمة - بالرسالة - إلى هداية أمم الأرض وزفها الى الجنان. لن يهدأ فى الرسول جهد مكدود و مقدود من عزمه و بعد نظره، ولن تحرم الأمة من وسيع يومه و مديد غده، فالعدة التى حضرها ستجعل اليوم فتيلة الغد، و الغد زجاجة المصباح، تغرف منه الأمة نورها الوضاء. كل شىء جاهز فى التحسب الرزين، فالإمامة التى كل معناها - خلافة - هى فى أمتن ما تكون، فعلى - وحده - أساس المحراب، و هو - وحده - سقفه و سناده، و بهاؤه... انه الإمام الخليفة، إذ تحمل السحب المخلوف إلى السقوف العلية، تاركة للأرض من ينور لها الممرات، [صفحه ۵۲] و من يفتح لها الكتاب و يعلمها فتح الكتاب. سيكون من على نسل من القراء الخلفاء، و سيكون الأبناء عديدين فى التدرج المبارك، و سينتخب منهم الأنسب للتخريج - اماما عن امام - فى خلافة تصل الفرع بالأصل، فارضة على كل ولى منهم تلبية حاجة الأمة، و كيفية ابتكار سدها بأى نوع من الممكنات، و هكذا فان الأمة ستناديهم الى حاجاتها فيلبون لها الحاجات... سيلبونها - كل بدوره - فى بقر العلم إذا انكسف منه عنهم شعاع - سيبلونها بوصلة الخيط إذا انقطع الخيط من غزل قميص تلبسه فى العراء، سيبلونها بازالة الضيم إذا ارتجفت بالظلم أنملة القضاء... و سيلبونها كلما اتجهت اليهم برجاء فلا يسكت واحد منهم عن تلبية الرجاء. إنهم اثنا عشر فى الخط المرصوص فى تواصل الخيط، حتى إذا انتهى بهم الخط، تكون الأمة قد اكتفت فى تدرجها و احتاطت بالتأمل و التكامل المليئين من نور الرسالة، و هى كلها - عندئذ - خليفة الرسول العظيم، و راسخة فى الرسالة: ثقافة، و حضارة، و نورا، و إيمانا... إنها الأمة التى كان يحلم بها النبى العطوف، لتكون فى الأرض جنته المثيلة بالجنان الزاهيات. ولكن الرسول العليم، كان يرسم هلعه الكبير على أمة لم يتمكن - هو بالذات - من ترميم كل ثلمة فيها، فاكتفى بالنهج أن رسمه على اللوح، و نفذه بمن فهموه و لبوه، ليبقى حاضرا فى الذهن: بأن الأمة إذ ما تستوعب الرسالة بكاملها، و تطبق نهجه بحذافيره، تصل - من دون ريب - إلى نظافة مثلى تحضرها لأن تكون وسيعة المعاهد و النوادى، و نادرة المحاكم و السجون. ان الأمة الآن تصغى إلى صوت جابر بن عبدالله الأنصارى يبلغ الفتى [صفحه ۵۳] اليافع محمدا و هو الشبيه بجده الرسول، بأنه مدعو إلى تلبية حاجة الأمة فى يثرب، مدينة الأنصار، و هى المحرومة من العلم، حتى يتأهب و يوسع الأبواب لمعهد يمد الطلاب فيه بمعلومات عن علم الحساب، و الفلسفة، و التفسير، و الجغرافيا، و الطب، و الكيمياء... ألا نراه سيلبى عندما يتطلب منه أن يلبى؟!. [صفحه ۵۴]

الأمة

انه هو - بحثنا السابق و عنوانه «الإمامة» - يسوقنا الآن إلى بحث آخر بعنوان «الأمة»: هنالك كلمات أربع، يشتق بعضها من بعض، بمعناها و مبناها، و جميعها يكتسب معنى الحضانة، فالإمامة، و الأم، و الإمامة، و الأمومة، يجمعها إلى بعضها توضيب واحد من

العطف، و الحنو، و الالتزام، و يفصلها عن بعضها حجم متفاوت المؤديات: فالأم تحضن عدة أبناء يحرضها عليهم عطف الأمومة، - و الامامة أم أخرى دافئة الأضلاع، تحتاط بعدة أولياء يحترقون بلهيب رسالة - أما الأمة فهى كنه الأمومة، و مجموعة الأرحام فى مجتمع انسانى نما فى جغرافية من جغرافيات الأرض تضبط كل واحدة منها حدود أرضية (صخرية، أو صحروايه، أو مائية بحرية.) أو انفتاحات تمتد بها و تطول، ولكنها توصلها - فى النتيجة - إلى تخوم تنكفىء بها الى ذاتها فى العمل و التفاعل و تنظيم الاكتفاء. لكل مجتمع من هذه المجتمعات البشرية عادات و أنماط بيئوية مسحوبة من مناخات أرضه، لتبقى مكرورة و مسطورة فى التقاليد المنحفرة فى سليقة أبنائه و سجاياهم، منذ آلاف السنين، و قد يستمر هذا الحفر فى النفوس الى ألوف أخرى من الأمداء، من دون أن ينفعل أى مدى منها بأى تطوير أو أى تحوير... لا يقصد البحث احاطة تامة بتحديد الأمة تحديدا عليما و موثقا [صفحه ۵۵] بماهياتها المرتبطه بالحياة، و بكل ما يتعلق بعلم الاقتصاد، و علم الجغرافيا، و علم الاجتماع، ان لذلك اختصاصات مطولة، سيشير اليها امامنا الباقر عندما يشرع أبواب جامعته فى يثرب. فيشرق علم، و يشرق صواب. يكفينا من التحديد ايجاز يشير الى أن الأمة كائن حى، و هى ضرورة حتمية لنشأة الانسان، أما قيمة انسانها فانها تتوفر غالبا من نسبة ما تتنشط به الأمة من فاعليات متحركة منها، تكون مددا و ذخرا لهذا الانسان، تدفعه لتحقيق معين، يجهز به أحلامه و أمنياته، أو فلنقل: طموحاته التى تكبر بالجهد و المثابرة. سيكون العلم - وحده اذ يتيسر - نواة الجهد فى لولب المثابرة، لا الحظ المقرظ، و لا الجهل النائم فى عين ضب!!. ها هى الأمة المتربعة فوق مساحاتها الطويلة و العريضة، تتطابق عليها المواصفات الواردة فى متن هذا البحث: انها الجزيرة العربية، و قد أنجبت فتاها العظيم المؤمن بها طاقة فاعلة فى حيز وجوده، و بأنها هى التى انتجبته من صميم ضلوعها و من صميم معاناتها الطويلة فى ردهات الزمان، و من حاجاتها الملحة الى كل تطوير و تحوير يوجه انسانها توجيها آخر يحرره من صباغاته المزمنة، و من عاداته و تقاليده المترسبة فيه من قبلية جاهلية أنتجتها المساحات السائبة بين الحرات و الأحقاف و الرمول السائلة فى وهج الدهناء و ربعها الخالى، ليكون له - من و احاته - قسط مندى، يربطه بحقيقة الانتاج الانسانى الموجه بالعلم و الرشد و الفهم الحى. لقد أدرك النبى الغائص فى لجج التأمل و عباب الوحى، أن الأمة الملقوطة بصمت يابس، هى أمته بالذات، و هى الخارج منها و المنتسب اليها، و هى له فى الذخر و فى الشح، فاذا كان لها أن تقبله فهو الحى بها و الجائل بها فوق المساحات، أو إذا كان له منها ذلك العكس الحزين، فهو المهدور الى زوايا الأمس، و رسالته هى الخائبة المشلولة فى العتمات!!!. [صفحه ۵۶] و انصب النبى الشبعان من نعم الغوص، ينجى أمته من الاستغراق فى عتمة الريب، مقدما لها حروفا تؤلف منها كلمة الحق تمشى بها إلى رصف الذات فى مجتمع سيقرأ اسمه مكتوبا على اللوح. و لبته الأمة - كما سبق و قلنا - و ان تلبية كثيرة الاجتزاء، و راح يتنقل بها عبر الانفتاحات ذاتها التى كانت تعبرها فى كل ماضيها السحيق، حاملا أمامها رسالة تسهل العبور: لا الى الجوار المألوف و حسب، بل الى أمم أخرى، غريبة اللغات، و بعيدة الحدود، و قد استهوتها الرسالة بما فيها من حب و مساواة و مؤاخاة، و من ايمان بالله ينشر الطمأنينة فى الروح، و يبلسم النفس بالرجاء و العزاء... ان فى الرسالات السماوية جاذبيات مشتركة، تجعل أكثر من أمة واحدة تدين بها و بها ترتل صلواتها. كان التطرق الى هذا الموضوع من أجل الاشارة الى أن ايمان النبى العظيم كان بليغا بالأمة التى هى أمته فى الجزيرة العربية، و أن حبه و اخلاصه لها هما المفروضان فى التحتيم، و أن الرسالة و الامامة هما لها فى التنزيل و التنظيم، أما العلم فهو الذى يترقبها تحتازه فينجيها من جهل يشل نهضات الأمم. ان الامامة المنظمة شددت على العلم يبتدىء بتفجيره امام يشعر بأنه حاجة مستمرة لنجاح الأمة و الرسالة اللتين تركهما الجد الكبير و الغيور، فى بال كل امام يلتهب بالرسالة و بحب الأمة التى هى أمة محمد. [صفحه ۵۷]

آل البيت

انهم - بالتخصيص - على و فاطمة و الحسن و الحسين. انهم البيت الذى «شاءه الله ليذهب عنهم الرجس و يطهرهم تطهيرا». لماذا هذا البيت تتخصص له النظافة و الطهارة؟ و ليس سواه من البيوت التى يعمر بها مجتمع الجزيرة؟ أليست الأمة كلها الآن هى بيت النبى،

يشمله بحبه و بولهه، و يسكب عليه كل حرف من حروف نجاواه؟. ولكن البيت الذى أعده النبى هو - فى وسيع خلده، و رحيب جنانه - بيت الأمة بالذات، ينظفه من الرجس، يرويه بالطهر، ليكون - فى المطلق - هالة مثلى، تنسج كل الجزيرة بيوتها على طرازه المنقى، و المصفى، و المروى بالجمال... انها الامة بالذات، ينثر عليها النبى الكريم، فى كل لحظة من اللحظات، ألغازا و رموزا و آيات، حتى يكون لها - أبدا - ما يشغلها عن غزل الترهات، بتفتيق الألغاز من مخائبها، و حل الرموز من أصفادها، و تسديد التبصر بالآيات و أبعاد مراميها... لو أبصرت - فعلا - هذه الأمة كم هو عظيم هذا النبى المرتفع من عتمات ليلها، ليخلصها من كل عتمة تتكسر فيها زجاجة المصباح!!! لما كان لها أن تفوت لحظة واحدة فى الاصغاء اليه، لأن فى اطاعته جدوى تتخبأ فى عتمة اللغز أو فى لطوة الرمز، ولكنها - فى غد أو ما بعد غد - تنكشف الجدوى عن لؤلؤة يحتاجها العقد الذى ستزين الأمة به - فى الغد - جيدها. [صفحه ۵۸] ان حائط بيت الأمة الذى راح النبى الى بنائه كان فى رهصه الأول، أى فى أول مدماك من مداميك الأساس، و لم يجد للزاوية الركيزة الا حجرا مسحوبا من مقلع الصوان... و مقالع الصوان فى جزيرة الرمل مرذولة، لا لأنها المكفولة فى تحقيق المتانات، بل لأنها ليست سهلة - كالرمل - فى جبلة الطين، و صلبة تحت مجسة الشاقوف، و يهرب منها البناؤون، ففى خشونتها ما يقطع الخيط و يقرض الازميل!. و لكن النبى المتين ببنائه النفسى - الروحى - النبوى، كان يفضل بناء أمته بناء متينا لا رجس فيه و لا أى من عهن، يدعمه الطهر فى المسارات المنزهة، و يرمقه التاريخ بعين من غد لا يرقى اليه غير المرسخين بالصدق، و العفاف، و النزاهة المثلى، و كلها مزايا، تهيمن عليها و تفرضها متانة فى العقل، و متانة فى الرصد، و متانة فى اللب، و متانة فى الروح. لم يجد النبى الكريم فى تجواله الميقن بالحق غير على فى فتحة الباب، و كشفة المقلع، فتناوله بباعيه العريضين الى صدره الأمتن، و جدله جدلا بابنته فاطمة الزهراء، ليكون من البناء المرجو فرع مطيب بالحسنين... يوما بعد يوم. و يتعدى أساس البيت رهصه الأول... سيكون على رأس الزاوية... لأن الصوان فى عملية التأسيس كلزوم ما يلزم... أليس حيفا على النبى - و قد احتضن الأمة كلها - و استنجد الله من أجلها حتى ينجيها من رجس ذميم يمرغها فيه اختناقها بحبال قبلياتها؟!! أجل، أليس حيفا - عليه - و قد اعتبر الجزيرة كلها قبيلة واحدة فى مناعة الإسلام أن يلتقط بعلى، و يغسله من رجسه، و يمسحه بأفاويه الطيب، و يلفلفه مع ذريته الطالبية بوشاحات الخلافة على أمة المسلمين، لا لأى سبب من الأسباب، بل لأنه يلبس العباءة الخشنة المنسوجة على المكوك الطالبى!!!. [صفحه ۵۹] حرام على القلم أن يؤلف من الكلمة سهما يشير بالحيف الى نبى المسلمين: فهو المتكلم بلسان الحق، و لسان التنزيه... أما على، فان المزايا التى هى جمع باقات فى غزل عباءته، قد عينت لحمته بنبى المسلمين ... سيلبث طالبيا يجرى فى عروقه دم الجدود، و من أبهاهم شيبة الحمد. أما العبقرية التى امتصت الرسالة و دمجتها بسجاياه، فهى التى شددت الموصلة فى اتجاهها نحو لملمة القطب. و قطب على أوسع بكثير من قبلية... انه فضاء من قيم تأخذ بها أمم عديدة من أمم الأرض، و تتحضر. أما أن يأخذ النبى عليا الى صدره فى عيد الغدير، مشيرا اليه بأنه نعم الولى. و نعم الخليفة، و نعم الضمانة للأمة فى كنف الاسلام... فيا عجباه، و يا عجب التاريخ يكتبه الصدق و المنطق، و يا عجب السماء، و يا عجب التراب المنهال على أضرحة الأولياء و الأنبياء الصادقين... لو أنه لم يفعل!. ان هتاف النبى معلنا نظافة أهل بيته من الرجس، و تطيبهم بالطهر بصيغة المطلق، كان اشارة من اشاراته الأنيقة - كأنها السبابة الممتدة من كفه نحو على بأنه الطاهر القادر على سياسة أمة بتخليصها من كل رجس، و تطهيرها تطهيرا - ان المولعين بالحق يتمكنون من نشر راياته، و لن يكون لخفاش قول فى سطعة النور. لقد كان اعلان النبى بطهارة أهل بيته، رمزا معلقا على رأس بنان من بناناته الناطقات. و ان تعليق سياسة الأمة بخيط منضد على مغزل مستقيم، معناه أن امامة اثنى عشر هى الخيط الممدود و المنقى من النسالات و من العقد، و هو المنقول على المغزل الصحيح. و لا- يشتد الا- به الحبل السليم... ان الغزال هو على بمغزله القويم، و ان الغزالين من بعده - على مدى محترم من محطات السنين - هم من خطه فى مهلة التدريج، و هم المتناوبون على ضبط النسيج - و هم المصطفون حول فوهة البئر، يقدسون الحبل و الدلو [صفحه ۶۰] الغارف من القعر ريا لا رجس فيه و مطهرا تطهيرا. لماذا لا يكون لنا هذا التيقن؟ بأن الرسول - و قد ألم بآيات الكتاب - هو العليم بما يجول فى الضمائر، و بما ينام فى طيات الصدور!!!. ان يكن لنا أنه نعم العليم و نعم الفهيم، فما هذا

الجهد يبذله: تارة فى التصريح، و طورا فى التلميح، و أحيانا كثيرة فى الاشارات المصبوبة فى الألغاز المطوية فى الرموز؟!!!. و لكن النبى العظيم الفهيم العليم، قد سكب كل قرارته فى الواقع الناجز المعلن عن ذاته: انه لك أيتها الأمة الملمومة من شعاب الأمس، كتاب فاقرئيه، و نهج فارسميه فى صفحة الضمير، و ما لم تفهمى الكتاب بمحجريك، فأى نفع لذراعيك فى حمل الكتاب؟!. و ما لم تحفرى النهج الجديد بأصغريك، فأى نهج لقدميك تعودان بك الى الرمل فى هاتيك السهوب؟!!. سيكون لك - يا أمتى - أن تقرئى الكتاب بعين كعين على، و أن ترتسمى بنهج قد ارتسم به الإمام على... فعلى هو الكشاف بالعين الوسيعة، و كذلك هو النهاج فى المرامى المنيعة... فليكن الذين يقطعون بك الطريق، من معدنه و من لونه، و من فسحة عينه... سيكون لك يا أمتى عن الطريق السوى شرود!!!. و لكن العلم الذى ستتوسع به الخطوط العريضة عبر التجارب الطويلة و المريرة. سيرشدك الى نهج على، و هو المشحون بصدق المزايا!!!. ان المزايا - وحدها - فى كتابى، سيقرأها عليك من هم امتدادى فى خط على... فانتظرى الغد - يا أمتى و تثبتى به نظيفا من الرجس، مليئا بالعلم، و الحق، و النزاهات المطهرة تطهيرا. [صفحه ۶۱] ألا- فليكن لنا رؤية و تجرد و اتزان كلما وجهنا الظن نحو صف الامامة... سيكون لنا من التجرد المحرر من الهوى أن نراه خطا عريضا و بهيا، تنمو به روعة الاسلام، بحيث تنزهه الطالبية فيه من دون أن نعتبرها الا وصلة جليلة و مطهرة، تدفع الروعة تلك الى حقيقة التكامل و صفوة الانتظام. ليست الطالبية الملتحمة فى بهجة الصف من غير الطالبية المتدهن بها الرسول الغارق فى بحار السور... الا فليحترم تواصل الموج فى معارج أليم أى من واقف على الشط، يسبر الغور بعصا عرجاء لا بمجذاف مطيب. لقد قدم الرسول نفسه للأمة و ما بخل عليها لا بعرقه، و لا بدمه، و لا بروحه، و لا بكل ما فى جوهره من طالبية عريقة بالمكرمات. فأى بذل نفيس لا يحسب له فى وصلة البذل، و هو يقدم للأمة حبلا طويلا من أصلابه المتمرسين به فى مدراج القرآن، ليكونوا - من بعده - معاول و مساند، يتعهدون المسيرة و يتحملون مواقع الضيم، و يرقون بها الى التحقيق المعين فى مقاطع الآيات؟!. أجل - انهم طالبيون، ولكنهم من الصنف المتصلب بالممارسات - أبا عن جد - و هى الممارسات التقية لا تلك الموسومة بالقبلية... ليكونوا خير من يتمكن من ايصال الأمة الى المراحل المشتهاة... و لقد سخا عليهم جدهم الرسول، و محضهم كل حبه، و كل أشواقه المديدة، حتى لا- يخيبوا فى عمليات التمثيل المشقوق فى ضلع الرسالة... لقد جعلهم القصد لحمة فى التسلسل، و لحمة فى الشوق و البث، و لحمة فى الاستحالة... لقد استحال كل واحد منهم شبها بجده الأعلى، ان الشوق اليه، [صفحه ۶۲] و الخشوع الكامل، أمام ذاكره، و التقيد المطلق بمضامين كتابه، و شمهم بالشبه، سواء أكانوا قد ولدوا بين يديه فامتصوه بأعينهم، و مسامعهم، و كل حجاهم كالامام على، و الحسن، و الحسين. فاستحال كل واحد منهم شبيها به: فى تصرفه أو فى تحدثه، أو فى تفرده بصياغة المواقف و النهوج، أم كانوا قد ولدوا بعد انتقاله الى المجال الرحيب... حسب الإمام على بن الحسين من جده الرسول يحصل على شبهين: واحد، أغرقه فى لقب «زين‌العابدين» و آخر لأحد أبنائه كان مرسوما فى خطوط ملامح الوجه، لقد أخذ بهذه الملامح الشبيهة بالرسول الصحابى جابر بن عبدالله الأنصارى... يا طالما نزلت فى هذه الأذن الذكية انطباعات رضية حملها هدا الأنصارى و راح يرشها على المؤمنين، كأنها ثواب لهم، لأنهم صدقوا الوحى يحمله يقين الرسول. و أطاعوا كل همسة همس بها بال الرسول... يا لمحمد الباقر يهمس باسمه جده الرسول. [صفحه ۶۳]

الامام الحسين

انه فى الوقت الحاضر امام المسلمين، و سيد البيت، يرعى فيه كل الوشائج... بالأمس نادته فاطمة بنت أخيه الحسن حتى يبارك طفلا لها وفد جديدا الى الحضن الامامى، لقد توسمت فيه كثيرا من البشائر، و لقد باركه جده الإمام و سجد الله تعالى طويلا أمام ملامحه البهية، و لقد سمعناه ساعة تلك يطلق عليه اسم «محمد الباقر». فى البيت الآن امامان يستظلان عينى السيد: واحد منهما فى الثانية و العشرين من عمره، يدرجه أبوه لاستلام الامامة بعد أن يكون قد سقاها - هو الحسين - كل صبيب دمه! ان اسمه الآن على بن الحسين، و قد وجهه الإمام منذ عشرة أيام لزيارة عمه ابن‌الحنفية الموجود حاليا فى اليمن، أما زين‌العابدين فهو هاجع فى اسم على الى

ما بعد أن يشوى ضلوعه و قيد الحزن، و يشرب الآسى من عينيه، دمعهما الأحمر!. أما الإمام الثانى فهو الذى يفرض الآن أوامره على جده الحسين المتربع أمامه فى بهو الدار فى يثرب. ان الصغير البالغ ثلاثا من عمره، يلف من الوراء عنق الحسين بذراعيه الطريتين، من دون أن تمنعه الثرثة من اعتلاء الكتفين المحدوبتين أمام غنجه، و من الهبوط عنهما الى الحضن المكفوف بزندين يأخذه بهما الجد غمرا و جسا. انها حالة من حالات الهيام المتحكم بالمشاعر، تستبد الآن [صفحه ۶۴] بالحسين، و هى ترجعه - بالذكريات - الى عهد طفولته الغنية بالمداعبات و الثغثغات كان يهرقها هرقا على جده الرسول، فى أية ساعة من الساعات كان يلقاه فيها: فى زوايا البيت، أم فوق الأريكة الممدودة فى صحن الدار، أم فى لولب من لوالب الزاروب المؤدى الى بوابة المسجد، أم فى المسجد بالذات حيث كان الرسول يعتلى منبرا مشدودا من لبن الطين، و يحدث الناس - من فوقه - عن الجنان الفسيحة التى تنتظر المؤمنين الصالحين. ولكن الرسول قد ترك فجوة كبيرة فى بال فتاه الحسين، عندما غافله و غاب خلف طيات الفضاء!!! لقد فتش عنه كثيرا ابن الست سنين، و لم يجد أمامه غير طيف محجوب خلف هالات و هالات، لا يكاد يدنو منها حتى تنشق و تذوب، ليبقى - وحده - غارقا فى جفوة الفقدان، كأن الجو كله الذى ينام فيه ملفوف يعتمة سميكة لا نجمة فيها، و لا قمر ولو بقرن ضئيل من شعاع!. بعد نصف ساعة تعب الفتى الصغير من حفيف ثغثغاته، و استدفأ حضن جده الحسين، و أغمض عينيه ونام، و كذلك أغمض الحسين جفنيه على ضناه الكبير و هو يقول: يا طفلى المندى بالعبير كم يكون عمرك عندما تصحو عيناك من قطب النوم، فلا تجد حضن جدك الحسين يهفو عليك، كما كان يهفو على الرسول!!!. نم الآن يا طفلى ملفلفا باسم جدك الذى يقرئك السلام. ان لك غدا تعى به ما هو موكول اليك، أما ما هو موكول الى، فالغد الآتى سينشره عليك. [صفحه ۶۵]

حزن كربلاء

فى ليلة ظلماء انسحب آل البيت من يثرب نحو محارم الكعبة فى مكة المكرمة. لقد ضاق الإمام الحسين ذرعا من الوليد بن عتبة و الى مدينة يثرب، يأتيه كل يوم بعد يوم، طالبا اليه مبايعة بالخلافة ليزيد بن معاوية. ان تواتر الأخبار يرجح أن الوليد بن عتبة - و ان يكن حربيا من بنى‌سفيان - كان يعطف على الحسين، و يحاول أن ينجيه من أية أذية يهدده بها يزيد، ان لم يسارع الى مبايعته بالخلافة. لقد كان الحسين مدركا فداحة الورطة، لهذا راح يماطل الوالى بوعد حائر بين الرفض و القبول حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، و أما الداهية مروان بن الحكم - و قد اكتشف ما يجول من ضعف فى عزيمة الوالى - فانه بادر الى تنبيهه بأن سرعة التنفيذ لا تنجى عنق الحسين من القطع، أكثر مما تنجى الوالى من الإقالة... لم يغب دهاء مروان عن فطنة الحسين، فحزم أهل بيته فى هذه الليلة الصامتة، و انسحب الى مكة، ففى محارم الكعبة متسع من الوقت للتبصر و التدبر. جل ما حصل بعد الانسلال من يثرب: عزل الوليد بن عتبة من الولاية. تعيين مروان بن الحكم واليا مكانه. نجاة الحسين من ضغوط المبايعة، و حصوله على وقت يتخذ فيه حقيقة القرار. [صفحه ۶۶] أما الحاشية فى سرى الليل، فكان نجمها طفل تجاوز قليلا الثلاث سنوات، و كان يأبى أن ينام الا فى حضن جده الذى راح يعلمه رصد النجوم!. و حزن كربلاء؟ انه الحزن الكبير تحيى به الأجيال - فى كل سنة - عاشوراءها بتطييب ذكرى الحسين، أما كربلاء فهى الأرض التى اختيرت لامتصاص دم الشهيد. لقد تراءى لى أن هذا الحزن قد ابتدأ يمشى خطواته البليغة مذ انسل الحسين من يثرب الى مكة، ثم من مكة الى كربلاء - أما الذين تلبسوا وطأة الحزن العريض و أودعوه الأجيال لتخليد ذكراه، فانهم على بن الحسين، و قد انتقلت اليه الامامة، و معه لفيف آل البيت، لا سيما الفتى محمد الباقر، و قد بدأت ترتسم فى باله كل خطوط المجالات البعيدة و التى تشير الى أن أسباب حصول مثل هذا الحزن المرير ليست صدفة كربلائية بصورة الحصر، انما هى نتيجة كمون ترسبى فى ذهنيه الجزيرة التى اختطفت الرسالة من صدر نبيها. و سدت آذانها توا عن التعهدات المقدسة لحمايتها و استمراريتها فاعلة!. لقد أكمل الإمام ابن الحسين مسيرة أبيه المتلزمة، من كربلاء المصبوغة بالدم، الى شام يزيد الذى فجر وريد من اقتبل الامامة، و لم يرض عمن يزور الخلافة!!! و لقد كتب عليه أيضا أن يرجع من الشام الى الكوفة، و حزينا حزينا من واقصة، عبر كل محطات الصحراء المشوية

بالشمس، الى يثرب، حيث اكتملت امامته الساجدة، و اتصفت بزين‌العابدين. أحببت أن أسمى الخط الذى انطلق من يثرب و العائد الى يثرب، بالخط الجغرافى، و بدا لى أن أرسمه رسمة جغرافية وبدون مقياس، تسهيلا لتصوره و الاطلاع عليه... سيكون للامام الباقر - بعد ما يقارب [صفحه ۶۷] الأربعين سنة - أن يتولى الامامة و الجامعة اللتين سكب فيهما جهده أبوه الإمام زين‌العابدين، و أن يوسع المناهل و المسالك فى علوم الفيزياء، و الكيمياء، و الفلسفة، و أن يقرنها كلها - بنوع خاص - بخرائط الجغرافيا، و بمساطر ضبط المساحات و المسافات، و تنزيلها فى الواقع الحى. ان الخريطة التالية هى تصميم الخط الجغرافى الذى مشاه الحسين مع كل مرافقيه، بعد سنة بالتقريب من انسلاله من يثرب: خريطة دب القوافل من يثرب، الى مكة، الى الكوفة، ثم رجوعا من الشام - عبر واقصة - الى يثرب: [صفحه ۶۸] ان المدة التى انعكف بها الحسين فى محارم الكعبة لم تتعد السنة الا قليلا، على ما أظن، ولكنها كانت بعيدة فى جناها و مؤادها، لقد تبسطت له كل أمور الأمة، و كل شؤونها المادية و الروحية و المستقبلية على السواء، ان الرسل الذين أوفدهم للاستطلاع و الاستكشاف قد بادروه كلهم بالرسائل و الافادات، و لم يترك - هو بدوره - رسالة واردة أو افادة وافدة، الا و وفاها بالدرس و التمحيص... من اليمن انهالت عليه الرسائل، و من الكوفة و البصرة جاءه سيل منها يعد بالألوف، و من القبائل المشرورة فوق فسحات الحجاز دفقت عليه رسائل التأييد، و من الشام - حتى - تلملمت اليه رسائل تشكو الظلم السفيانى و تلوح بالمناصرة: و كشف الدرس الصحيح و التمحيص الموزون كل ما جاء فى هذه الرسائل البالغة فى عددها اثنى عشر ألفا - على ما قيل... فقط، مئات قليلة منهم يحملون سخاء الطبع و يجلون القضايا من شرعة الانسان - و مئات قليلة أخرى يفضلون الطالبين، لأن منهم الرسول و الآخر عليا... و مئات قليلة تربط الرسالة بالامامة للتخلص من بنى‌سفيان... أما الكثرة الساحقة فان وعيا متفاوت الحجم و الوزن و القيمة يوزعهم فوق الرقاع، يفتشون عن عون و حماية و لا يجدونهما الا فى ظل شيخ قرشى أو زعيم مجرب!!! أما الرسالة، أما الامامة، أما القضايا الكبيرة التى يتوسع بها العقل، و الفهم و الادراك فى مجتمع الانسان، فكلها - كالحريات - تدوسها العبوديات باقدامها المفلطحة، ليبقى الانسان كما هو الكبش فى القطيع: يكسر الراعى قرنه، ساعة يعطش الساطور الى لحسة من دمه!!!. جل ما أدركه الحسين انتهى به الى اتخاذ القرار الصارم المبنى على مثل هذه الحيثيات التى راح يتغنى بها فى سره و فى جهره و هو فى محبسه [صفحه ۶۹] بين الرسائل المنثورة فوق الأرض، و الافادات المرزومة فوق طراريح المقاعد: - ما جاء جدى الرسول الا من هذه الأمة... و من أجلها استنزل الوحى و صاغ الكتاب. - و من أجل صيانة الرسالة فى صيانة الأمة و الدفع بها الى الصعود، شد الامامة و جعلها - حصرا بالرسالة و بالأمة - أداة رعاية و أداة بلوغ. - و لن يكون للرسالة شأن، و لا للأمة وصول، ما لم يكشف العلم جوهر الرسالة، و ما لم تستنر الأمة، بجوهر العلم. - أولا- و آخرا هو الانسان فى حقيقة المجتمع، فليتعزز بكل ما يحرره من الجهل، و العى، و معانى العبوديات... العلم وحده يحقق الأمة الواعية و المجتمع المنيع، و يمحو الذل، و ينمى الكرامات من عنفوان الانسان، و يمتعه بالرشد الصافى، و يعين له لون الحريات. - ان الصفات الكريمة، و كذلك، هى المزايا المحصنات، تبنى الأمة، و تصون المجتمع، و تنشر كل ما فى الرسالة من آيات بينات. - يا لجدى محمد، يملى على الآن كل عزم كان يطوف فوق فسحة جبينه و على أرنبة أنفه... - سأرفضك يا يزيد من خلافة تنجسها... أما الأمة فلتشهد أنى أبذل دمى من أجلها حتى تتعلم: أن الجبن ذل، و أن القبول بالذل يبيد الأمم... و أن العنفوان هو ابن الكرامة و الاباء - و هو علم جليل باهر و هو الذى يحيى الأمم. كان الحسين مغمض العينين عندما انتهى من ترنيم قراره، و لما فتحهما وجد أمامه فى الباب: عليا ابنه واقفا فى اطراقة صامتة، و حارس دارهم أسعد الهجرى، مطرقا أيضا بصمته الخاشع، و ما بينهما الفتى [صفحه ۷۰] الصغير محمد، و عمره أربع سنين. آخذا بيمناه كف الهجرى و بيسراه زند أبيه... الا أنه كان مشدوها يصغى، و كأنه فهم كل ما أصغى اليه. تبسم الحسين و هو يستوعب الثلاثة المراقبين، و قبل أن يفتح ذراعيه كان الفتى محمد قد انضم اليه، وجده الحسين يسأل: - هل فهمت كل ما سمعت يا ابن جدك الرسول؟. و سريعا ما جال صدى صوته فى جو المكان:. - و هل يمكن أن لا أفهم نبرة يهمس بها جدى حسين؟. غمر الحسين حفيده، و تبسمت فى عينيه دمعتان هادئتان و هو يقول لابنه على ثم لأسعد الهجرى: - تحضره يا على، ألم تسمعنى الآن أنقل اليك حوض الامامة؟! و أنت أيها الهجرى المسكين السابح فى

قرارت نفسک، ارزم الحوائج و تأهب للسفر... سنترک مکة لیلعب بها کیفما یرید و الیها عمرو بن سعید بن العاص... و سنترک محارم الکعبة، لیکمل الرقص فیها - علی هواه - عبدالله بن الزبیر... و عندما ینتهی الهزیع الأول من هذا اللیل نغذ السیر نحو الکوفة، حیث ینتظرنا طیف الإمام علی علی بوابة المحراب. لم تکن الرحلة التی قام بها الحسین من مکة حتی الکوفة فی العراق مجرد نزهة للترفیه عن النفس، انما هی - بحد ذاتها - مشقات مضنیات. تشویها الشمس بدفقات من سعیر، و تمط بها المسافات من لیل ساهر بالنجوم، الی لیل لا یداعبه نسم... و تبقی المحطات علی طول الطریق، توفر للمسافرین بعض متعة، و نوعا آخر من راحة یستأنف بها نمط المسیر. ان التوقف مع الحسین فی بعض المحطات الممدودة بین مکة و الکوفة ممتع بدوره، وفائق الأهمیة، بنسبة ما یوضح لنا القصد من اقامة [صفحه ۷۱] الرحلة، و بنسبة ما حضرت الرحلة من انطباعات فی نفس فتی عمره أربع سنین - یطوف فی قسماته شبه بجده الرسول - ان شوقا نادرا و مبکرا کان یوسع فیه مجالات الفهم و الاستیعاب: ها هو، فی الرحلة القاسیة، لا یفارق جده الحسین، یصغی الیه و الی کل من یحاروه عند التوقف للاستراحة فوق محطات الطریق. لم یکن له - مثلا - أن یلم من الحوارات بأبعادها و مراسیها الواسعات، الا أنها کانت تترک ظلا - فی عینیه - له من وطأتها و فرة اللون. (۱) فی أول محطة بلغتها القافلة النازحة من مکة - قبل منتصف اللیل - ألقی القوم رحالهم، مع نهوض الشمس... انها محطة «التنعیم». بلغ المحطة علی ظهر جمل أغبر واحد من بنی أعمام الحسین - عبدالله بن جعفر ترجل و عانق الحسین و هو یلهث فی لهفة القول. - أستعطفک بالرجوع الی محارم الکعبة... ففی الکوفة تلقی مصرعک!!!. و بسرعة لا تلهث أجابه الحسین: - ان خمسین سنة مرت علینا بعد عمر بن خطاب قد صاغت قدری، فلا تلهث علی یا ابن‌العم!! رعاک الله من مشفق حبیب!!!. کان الفتی الصغیر بعیدا خطوتین عن صدر جده الحسین... سمع الحوار القصیر ففرک أذنیه، و أغمض عینیه... و بعد أن فتحهما لم یجد الرجل اللاهث الا دامعا، یعتلی جمله و یرحل... و دنا من جده لیقول: من هو عمر بن الخطاب یا جدی؟ یظهر أننی لن أحبه!!!. [صفحه ۷۲] (۲) فی المحطة الثانیة و تدعی «الصفاح» لحق بالقافلة عون و محمد ابنا عبدالله بن جعفر، و قد استحصلا من الوالی علی مکة - عمرو بن سعید بن العاص - علی صک أمان للحسین یعود به آمنا الی مکة، قال عون: - هذا هو صک الأمان یا عم. رمق الحسین الصک بزاویة عینه، من دون أن یمد الیه یدا و قال: - جدنا الرسول هو الذی قدم لنا و للأمة جمعاء صکوک الأمان! و لقد بدیء بتمزیقها منذ العهد الأول علی یدی أبی‌بکر! أما هذا الذی فی یدک یا عون، فلیس صک أمان... بل هو صک ارتهان و امتهان!!!. أ‌لیس لنا أن نرفض صکا کاذبا توارثه عن أبی‌بکر بنو حرب و والی مکة ابن العاص؟!!. لاذ الرجلان بصمت حزین - دخل الحسین باب المخیم - لحق به الفتی الصغیر، تلقط بعباءته و عینه تسأل - رمقه جده و احتضنه إلی صدره... بعد لحظات محسومات، دخل عون، و محمد - مزقا علی قدمی الحسین صک الأمان و سجدا لله تعالی بین یدیه و هما یشهدان: - نحن معک و لک أبد الدهر، نمزج دمنا بدمک فی تقدیم الشهادة. (۳) و فی المحطة الثالثة و تدعی «محطة ماء العرب» کان الحسین منهمکا مع رجاله بتعبئة القرب سدا لعطش الطریق، و اذ بالفتی الصغیر یتقدم نحوهم مع رجل جاء یسلم علی الحسین. یبدو أن الحسین کان یعرفه منذ وقت طویل، و لما لمحه بادر الیه مرحبا: - أرحب بعبدالله بن مطیع العدوی. لک من حسن الرأی و سداد [صفحه ۷۳] الحکمة ما یجعلنی أصغی الیک. و بادر ابن‌مطیع بالجواب: - من أنا یا ابن‌بنت الرسول حتی تصغی الی؟. - ولکنی أجرؤ و أقول: لا تکمل الطریق... لن یکون لک من محبة القوم، درع تقیک!!!. لا الخوف، و لا الرعب، و لا الجهل یا سیدی ینشیء بطلا یحمیک!!!. و بعد تأمل رهیب أجاب الحسین: - انها أمة جدی یا ابن مطیع... جئت أعلمها کیف ترفض ذلا یغذی فیها الخوف و الرعب و الجهل المیت!!!. سأقرأ علیها فصلا من فصول الکتاب، یعزز فی نفسها مجد العنفوان، فلا ترضی أبدا أن تسلم سیفا لمن ینحر فیها شمخة العنفوان!!!. سمع الجواب ابن‌المطیع، و انحنی یقبل الطفل، و قد رآه مبهورا بشفتی جده الحسین ثم انفتل راجعا یوجه الکلام نحو السید:. - یا للعظمة، تتخطی حدود الوجل... لتعیش - بکرا - فی عین الزمان!!!. (۴) و فی هذه المحطة المدعوة «بطن العقبة» تمت مقابلة قصیرة بین الحسین و کان رابضا تحت بلاس الطیب، یعد البلاس کم فیه من خطوط مشدودة فی انشائها ظلا فوق رأسه، یقیه من وطأة الشمس، و بین [صفحه ۷۴] رجل دخل الطنب، و هو یدعی أنه یعرف کم هو عدد الخیوط التی

يشتد بها بلاس الطنب، و طفق يقول: ابن‌لوذان - عندى نصيحة لك يا سيدى الحسين، ألا تسمعها؟. الحسين - سأخذها من فم عمرو بن لوذان بن عكرمة - هاتها. ابن‌لوذان - لا- يبدو أن فى خاصرة الجو غيمة تمطر، فهلا- تعدل عن المجازفة!!! و سريعا ما أجاب الحسين: - ان المجازفة - يا ابن عكرمة - أن نعدل عن المجازفة!! ان ارادة الله هى الفاعلة. و هى التى تعصر الرمال. و تفجر منها دفق الفرات!!!. عصر ابن عكرمة عينيه، و ضغط أذنيه، و انسحب... بينما كان الفتى الصغير يرتمى فى حضن جده و هو يقول: - جدى... كيف يكون دفق الفرات؟. (۵) و فى المحطة المدعوة «العذيب» جاء الحسين وفد من وجهاء الناس، على رأسهم الشاعر الكبير الطرماح بن عدى، ودار بينهم و بينه هذا الحوار: - نحن أربعة آلاف، تقدر أن تضرب بهم ساعة تأمر. رفع الحسين رأسه بشموخ و قال: لا أطلب ارهاقكم بلا جدوى... لو أنكم تصوير واف لحجم الأمة، [صفحه ۷۵] لكانت اختفت منذ زمن بعيد هذه الذئاب من حول الحظيرة!!! اجمدوا الآن و ابقوا خميرة من الخمائر... ان غدا كبيرا سيأتى بعد أن أثبت رفضى!!!. و بعد لأى و تأمل قال الطرماح: - ألا تظن أن جبلى أجأ و سلمى. يا سيدى، يتمكنان من حمياتك فى ساعة المحنة؟!. و بشموخ آخر فيه كثير من كمد. قال الحسين: - انه قلبك الكبير أيها الشاعر... ولكن للأمة مطلبا آخر... تشترى به حقيقتها منى... و لا تشترى سلامتى الصغيرة... افهمنى يا طرماح... و رو شعرك من أطيب المناهل. انسحب القوم و الحسين يشيعهم طويلا و باعتزاز... و لما رجع الى المخيم، و جد فتاة الصغير متربعا فوق الحصير، و هو غارق فى التفكير... فسأله جده. - بماذا تفكر؟ أجاب الفتى جده، من دون أن يرفع رأسه اليه: بجبلى الطرماح... أجأ و سلمى... و احد باسم رجل. و آخر باسم امرأة. و هفا عليه الحسين، و هو يقول فى سره: سيكون لك يا فتاى. أن ترسم جغرافية القمم. و هيكلية الإنسان. [صفحه ۷۶]

ساحات كربلاء

و جاء دور كربلاء - انها المحطة الأخيرة للاستراحة الكبيرة التى نامت فوق أوشحة المسرح. لقد تم فيها التخييم لعشرة أيام من بداية محرم، بعدها تقوضت الخيام و انشلت خشبات المسرح... و أما الستارات، فانها تلك التى تضرجت بعقيق و عندم و مرجان!!! و بقيت منشورة على صفحات الجو تتفيأ بها - منذ ذلك الحين الى كل حين - حروف مفتوتة من ضلوع كل ألياذة تسقيها البطولات النادرة عبير الدم. لقد انتثرت الخيام، كأنها المصنفة الجيوب، خلف الخشبة العريضة المنصوبة فى صدر المكان، هكذا تمثلها الخيال من الواقع الذى اندمجت به: - مخيم وسيع كان يلتم فيه الركب المرافق للحسين - لم يكونوا فيلقا لحرب، أو قوادا لجيش... بل انهم أهل و أربطة وفاء؟ رافقوا السيد، حتى إذا ما ناله ضيم شربوا معه نكد الضيم سواء بسواء. لقد كانوا معدودين بمئة أو ما يزيد قليلا، و كلهم أوفياء مخلصون، كمحمد ابن العم عبدالله بن جعفر مع أخيه عون، أو كمتفان آخر، زوج دلهم المشهورة بحبها لآل البيت، و اسمه زهير بن القين. - و مخيم ثان - أضيق قليلا- من الأول - كان يتلطى فيه الحريم، و الأطفال، و المرضى: مثل على بن الحسين و قد طرحه - مريضا - اسهال [صفحه ۷۷] عنيف قرب زوجته فاطمة بنت الحسين لتعتنى به... فى هذا المخيم النسائى انحجب الفتى الصغير - محمد الباقر - و لم يسمح له أبدا بالظهور أمام جده، لأن كربلاء كلها معدودة - منذ أن خيم فيها الركب - ساحة حرب. - و مخيم ثالث كان ينحشر فيه محضر و الطعام، و بين أيديهم ظروف و قرب الماء، و مواعين أخرى مليئة بالمؤن. - و مخيم رابع يتسع للخيول و الجمال و البراذين، مع سائسيها، أما الأعلاف فكانت حشو أكياس و أخياش فى مخيم ملاصق. تبقى الساحة الكبيرة، فهى الممتدة أمام المخيمات و ما حواليها، لقد - تحولت كلها الى ميدان حرب، تساقطت فيه - على أبواب المخيم الأول - نبال و سهام، كأنها حبال من ضرام. لقد كان التحدى مريرا قام به عمر بن سعد بن أبى‌وقاص قائد جيش مؤلف من ثلاثين ألفا لإسكات جيش آخر، قابع - كما رأينا - خلف قلاع الخيام! انه حصار ذميم، قوامه التخويف و الترهيب و التذليل، لدفع المحاصرين للركوع و الاستسلام!!! ولكن الحسين، و قد اتخذ القرار الأعصى، فانه نزل الى ساحات البراز و دفقات الصراع، شامخ الرأس، مديد الباع. لا يأخذ منه النبل مساحة جرح حتى يلثم الجرح بفم و هو ينادى: أين هى النبال كلها، و أين هى السهام. لا توسع الجروح - فى جسدى - و لا تغمرنى بالدم!!!

ان الجروح مساحتی - یا أمتی - تعلو بک الی. و أنا فوق القمم، و تنجیک من فرط الغباء. و من فرط السقم... [صفحه ۷۸] ان جدی النبی - یا أمتی - بانتظارک. و بانتظاری، لیوم الزهو، تتلبسینه. و ترفلین - به - بین الأمم!!! یا للفتی محمد الباقر - و قد نقب بلاس المخیم بسبابة یده الیمنی - یری جده الحسین فی الیوم العاشر من أیام البراز، یسقط أرضا، و هو کله - من قمة رأسه حتی أصابع قدمیه - مساحة حمراء من دم... قذف البلاس و ارتمی فی ساحة الدم... و تقاذفت بنفسها أمه فاطمة، وراءه معولة... و اعولت أخت الحسین، زینب... و کل النساء اعولن وهن یزحفن علی الرمل... و قام أبوه علی من فراش المرض، و لحق به و هو یجر قدمیه فوق لطخ الدم!!!. ولکن الجیش المتدفق الی ساحة المیدان، لملم الأطفال، و المریض، و النادبات، و جعلهم حزما حزما... و توجه بهم الی قصر الوالی عبیدالله بن زیاد!!!. أما رأس الحسین فهو المقطوع عن الکتفین و عن الورید ین الملونین الآن بزرقة الموت، و قد أصبح مشکوکا برأس الرمح، یرقصون به فوق الرمل الأحمر الملطخ بهمجیة الراقصین. [صفحه ۷۹]

سبابة الباقر

لقد ظنوا أنهم لا یتمکنون من تقویض المخیم فی کربلاء الا بعد انشاء المذبحة!!! و لقد أنشأوا - فعلا. جحیم المذبحة، و لم یترکوا رجلا واحدا من النازلین فی المخیم علی رمق من حیاة!!! لقد عدوهم واحدا واحدا، فبلغ عددهم مئة و تسعة و ثلاثین جثة مضرجة بالدم! بعدئذ هجموا علی البلس فمزقوها، و قطعوا الحبال، و قوضوا الأوتاد، و موهوا الأطناب!!!. یا للمسرحیة البلهاء - یقوم بتمثیلها - فوق خشبة منصوبة فی فسیح العراء - حاکم اسمه خلیفة محمد، فی یده شریعة منسولة من مناجم الحق و من منزهات القضاء، و بین یدیه فیالق جیش، و معدات حرب، و رفاصات منجنیق، و سیوف، و رماح، و نبال، و سهام، و جمال مصبرة علی العطش، و خیول مطهمة للنزال، و حتی رفوف من حمام مطوق زاجل، و قرود مدربة علی الرقص لعاری، و ببغاوات مفصحة النطق، و أفواج من الصقور الصاقرة، و من البزاة المجهزة للانقضاض. أجل... ما باله هذا الخلیفة الحامل کتاب الحق، و رسالة التجمیع حول الحوض المطهر، لا یصون الأمة و یحمیها من الحیف و هدر الدم!!! فلیکن له من الزعم ما یبرر أوامره بتقویض مخیم کل مناعته بلس مشدودة علی أوتاد.!!!... ولکن عدل السماء و عدل القیمة الحاصلة فی حضارة [صفحه ۸۰] الانسان، لا تجیز لحاکم - مهما تدنت فیه مراتب الوعی و مراتب الوجدان - ان یستبد ببلس المخیم، و یخنق کل من ینزل فیه من انسان و من حیوان!. لم یکن علی قائد الجیش البالغ ثلاثین ألفا، و هو یطوق مخیما فی کربلاء، لا ینزل فیه أکثر من مئة و ثمانین من النساء، و الأطفال، و المرضی المهازیل، و الرجال العزل، أن یتصرف کما تصرف، و أن یفعل ما فعل!!! لو أنه لم یکن الأحمق و الأجرم، لجاء ولف القوم ببلس خیامهم، و ساقهم علی رواحل خیولهم و جمالهم، الی سجن ممدود فی أقبیة بعض القصور التی شادها الحاکم الذی یرعی الرعیة بالعدل و الرویة... سیحاکم القضاء اقوم، و سیعلمهم کیف یکونون المؤمنین الصالحین، لا المجرمین العاصین الهاربین من وجه العدالة، و النازلین فی قلعة خلف مخیم... أما بلس المخیم فی کربلاء، فلم یثقبها: لا نبل أعور، و لا سهم من عماء، و لم توقص عنقا واحدا من أعناق أوتادها، لا ید من جریمة و لا جریمة من فیض غباء، انها لا تزال حیة صامدة فی عین الزمان... ثقب واحد - فقط - أحدثته سبابة الباقر فی بلاس من بلس المخیم المطل علی الساحة الهارب منها رجاء و عزاء و ضیاء... سیدخل من هذا الثقب - بالذات - شعاع آخر، تستنیر به الأمة فی یثرب، بعد ثلاثة عقود جدیدة یستلم فیها محمد بن زین‌العابدین زمام إمامة مقهورة، لا تجد أمامها من سبیل، غیر تفجیر العلم لمحو الجهل، و تبدید الحیف، و الظلم، و الاساءات!. سیکون توسیع جامعة آل البیت، بعلم الفیزیاء، و الکیمیاء، و الجغرافیا، و ما شابهها من علوم الفلسفة، و الفقه، و الطب، و الحساب، ما یحرک الفهم، و المدارک، و القابلیات المتحفزة فی الذهن و البال... ستکون سبابة الباقر - و ان عمرها الآن أربع سنوات - شعاعا ناعما و ضئیلا [صفحه ۸۱] فی لحظات الضحی، ولکنه سیکون مؤججا و سخیا عندما یبلغ ساعات الظهیرة. سیکون الباقر - بعد الآن - قد عانق جده الکبیر مساحات خلوده فی أمة جده النبی: اماما فی ظل امام. ان فی الفصل الجدید الآتی وصلة البحث و تتمة الکلام. [صفحه ۸۵]

امام فى ظل امام

امتداد الخط

ان الخط الممتد هو خط الرسالة عبر الخط العريض المتفرع منه و هو خط الامامة. لقد رأينا فى القسم السابق من هذا الكتاب، و عنوانه «خطوط عريضة» أن النبى العظيم هو ركيزة الرسالة المستوحاة من واقع الأمة التاريخى فى أمس حاجاتها الى مقومات روحية - فكرية - انسانية - اجتماعية، تضبط شؤونها الحياتية - المصيرية، و تنطلق بها الى التأسيس، و التركيز، و الفلاح. و هكذا اتضح لنا من البحوث الواردة فى هذا القسم أن الرسالة هى الحاح مطلبى - رسالى، تتكيف به أمة عريقة فى الوجود الانسانى المتشبث برمالها العربية، و بانفتاحاتها الجغرافية على جميع المقالب الأربعة من حواليها و المليئة بالجاذبيات السخية، و بجميع أنواع المغريات. ستوظف الرسالة هذه الأرض المطروحة فى أحضان الشمس الوسيعة، و ستمغنطها بحرارتها المخزونة فى أحشائها منذ انفراج النور، و ستنبه فى خاطرها بأنها حضن أمومى وسعته - بالأفواج البشرية - آلاف الحقب. وحده النبى أدرك أن على الجزيرة العربية - مثلما قدمت للجوار أفواجا بشرية تمازج بها هذا الجوار واحتواها - أن تتابع اليوم مسيراتها التدفقية، و تقدم مددا رساليا كامل الحضور تستفيد منه الأمة الخالدة فى توارثها و امتدادها الخالدين، و وحده أدرك أهمية هذه الرسالة، و رجاحة دورها فى التحضير الانسانى الناشط الذى يلملم هذه الأمة من متاهاتها [صفحه ۸۶] المزمنة، و يسترجعها الى الحقيقة الواعية و المؤمنة بقيمة المجتمع الفاعل عندما يكون مرصوصا بالعلم و الفهم، و الايمان بخالق يزين الروح بالتقوى، و يعالجها بالخلق الصادق و النهج المستقيم. كان القسم السابق - برمته - تلميحا موجها لتبيان قيمة الرسالة فى معالجتها شؤون الأمة معالجة مبثوثة فى جميع الخطوط العريضة المتفرعة منها: فالأمة، و الأمومة، و الإمامة التى رفض - بعض منهم - حجم حروفها فاستبدلها «بالخلافة» هى كلها متشابهة و منطلقة من الخط الرسالى - و هى بحوث من أجل حماية الخط و رعايته، و الانطلاق به الى نصاعة الديمومة و وجاهة التحقيق. لم يكن هم النبى محصورا فى التفتيش عن نقطة دم تجرى فى عروق من يخلفه حتى تصح الخلافة، و تصفو السلالة التى ستتربع فوق أريكة العرش - بل كان الهم ملتهبا بعزم الرسالى المتشوق الى رائد تتجانس حروف اسمه مع حروف آيات الرسالة، و يحمل من معانيها مقالع روحه، و مدارج فكره، و يسمو بها و هى تسمو فيه: مرانا، و مراسا، و انحفارا غائرا فى عمق النفس، و طويات السليقة. لقد وجده النبى - هذا الرائد - نائما تحت السقوف العالية من بيته المصمود فى القبة الزاهرة، انه هو العلى البطل المسند رأسه فوق الوسادة ذاتها الممدودة فوق الفراش المنسل منه الرسول الهارب من فتك الأقربين الحاملين رغوة الدم، لأنه يحمل اليهم رسالة يأبون أن يتناولوها من يده - ولو منورة... على هو المفتش عنه بحرارة الشوق الذائب فى حروف الرسالة، لا لأن يكون خليفة - بحروف الكلمة الصغيرة الملطخة بأمجاد العروش - بل لأن يكون اماما منبثقا من مجادل الرياديين، حتى تشرئب من فوق منكبيه رسالة بهية تبهو بها أمة العرب، و فيها تقتدى أمم الأرض. هكذا فلنكن [صفحه ۸۷] مقتنعين - أبدا - بأن النبى ما كان مفتشا عن خليفة يمتد به اسمه، بل عن امام تحيا فيه أجواء الرسالة، و تستضىء بها أرجاء الأرض. و هكذا أيضا فلنظن مع النبى: بأن الرسالة لن تعيش الا فى أشواق الامامة، و أن الامامة لن تكون حرزا الا إذا انبثقت من ضلع الرسالة، كما ينبثق الجنين من رحم أمه المروية بألام الحنين. من هنا أن الامامة مرتبة تنظيمية، تعب النبى على تنظيمها و تزنير الرسالة بها جدارا صامدا فى حقول الاحتراز، و لقد متن هذا الجدار بمداميك المران، و وثقه - صلبا - بمراس منور بعلم، و فهم، و ادراك. لقد طال مران على بين يدى الرسول حتى بدا كأنه انشطار منه، و هو يصغى الى انزلاق آيات الرسالة من شفتيه، أو الى صدى انهمارها من موقى عينيه، أو الى حفيف الاشارات المتهافتة عن راحتى كفيه. لا شك أن المراس يزيد الكسب، و يلون الكاسب بالغنى الفريد، و كذلك المراس يتصلب بالمران و يغدو فى مساهمة فاعلة، لا تخطىء و لا تريب. و طال أيضا مران الحسن و الحسين بين يدى جديهما الرسول فى فترات الطفولة، و بين يدى أبيهما الإمام فى ادراج الفتوة و الرجولة، فكان لكل واحد منهما - من وحى ما حفرت فيهما مركزات الرسالة - تصرف فذ و مبتكر، جعل الحسن - فى وطأة الأحداث - يحقن دم الأمة و يرتق صدعا فيها كاد يردها الى

جاهلیة قبائلیة تنسیها أن نبیا منها أنجب رسالة تلملم الأرض کلها و تلفلفها بالجنان... و جعل الحسین - فی مدی عشرة أیام - ینشیء الیاذة البطولة و العنفوان، باذلا دمه الأحمر فی رفض الذل، و رفض الامتهان، مبدیا للأمة: أن عزة النفس - وحدها - تحیی الانسان. أما الآن و سیرة امامنا الباقر لا تزال معنا فی مراحلها الأولی - فاننا نراه قد شد زناره علی خصره الصغیر، وراح الی حضن أبیه المتسلم جدیدا [صفحه ۸۸] امامته المتذوقة مرارة الألم و فداحة الأحزان. سیکون له من الآن و صاعدا - علی مدی ثلاثین سنة - أن یشاهد أباه زین‌العابدین، کیف ینام، و کیف یقوم، و بین یدیه کتاب یغوص فیه و یستخرج منه یاقوتا و مرجانا... سیقرأ معه الآیات، و سیستمع الیه یرتلها بالسجود و الابتهال، و سیصغی الیه یفسرها بمعانیها و مقاصدها البینات... ففیها العلم حتی یذوب الجهل من کل عین غبیة... و فیها الفقه حتی تتبصر النفس بحقیقة قضایاها... و فیها الکشف عن شموس نیرات، حتی تمتلی الحیاة من عین باریها... و فیها الحق، و العدل، و الخیر، و الحب، و السماح، حتی تتقطع حبال التعدی و الاجرام، و حتی یموت - جوعا - کل رجس، و کل ذئب، یتلطی خلف السیاج، و حتی تعم بطاحات الأرض خیرات السماء، و حتی تشملها طمأنینة عاقلة تمحو الخنزیر من ذهنیة الانسان... و فیها - بنوع شامل مطلق - أمر بالمعروف، و نهی عن المنکر، حتی تنمو الأمة بالنرجس و الخزامی و تصفو مخابزها من خدر الزؤان. لیس قلیلا ما سیجنیه الفتی، و قد خلا من تحت عینیه جده الحسین، لیعیش فی کل ذهنه النامی: بالتأمل، و التفقه، و التمرس، و المران. ستکون البحوث کلها - و ان وردت مجزأة الالمام فی القسم السابق تحت عنوان «خطوط عریضة» - من ضمن ما سیختزنه فی حقول الاطلاع، یغذی به تدرجه الواصل به الی مسؤولیته الامامیة، عندما تحین ساعات الوصول... انه الآن - فی قمصان أبیه - امام فی ظل امام. [صفحه ۸۹]

من الکوفة الی الشام الی یثرب

لقد رأینا کیف اهتزت خشبة المسرح فی کربلاء عندما ثقب الفتی الصغیر محمد الباقر، باصبعه الطریة، بلاس المخیم، و مد عینه من الثقب، و شاهد الرقص... و لم یکن یدری ما هو الرقص، و لا کیف یلهو به الراقصون... ولکنه، بعد أن جنت به الدنیا بأحلامها الشوهاء، قذف البلاس و ارتمی فی الساحة المخبولة، یسأل الجریمة ذاتها: - ما هذا الذی تفعلین؟ و قهقهت بوجهه تلک المأفونة الشمطاء، و صفعته بالجواب: - عبیدالله بن زیاد - حاکم الکوفة، و حاکم الساحة فی کربلاء، سیشرح لک - أیها الفتی الغر - ما معنی الرقص، و ما معنی الجهاد... و انتفل الراقصون صوب الخیام یعرون أوتادها من قمصانها السوداء، و یسوقون النساء و الأطفال سبایا محزومین بالأمراس، أما الفتی، فهو الواقف الآن محزوما بخصر أمه فاطمة فی القاعة الفسیحة من قصر الحاکم عبیدالله بن زیاد. منذ هذه اللحظة - و عبیدالله یتناول السبایا فردا فردا بعینه المزمومة، و أنفه المسطوم - بدأت عین الفتی تستدیر عدستها و تتغور، و راحت أذنه تتکوف و تتنصت و تتقعر... لیس للصدمات - فی النفوس الذکیة - الا أن تحفر صداها فی جدار الصدر و تتسور... [صفحه ۹۰] لم یطل المقام تحت عین الحاکم، و بعد تهدید بسحب عنق علی بن الحسین، ورش دمه علی أکتاف الحریم و الأطفال، مما أهلع السبایا، لاسیما الفتی المصغی محمد، عاد الحاکم و أرجأ تنفیذ الجریمة الی الخلیفة یزید، بعد أن أمر شمر بن ذی الجوشن بحزم السبایا وسوقهم الی الشام حتی ینظر الأمیر بشأنهم و یتدبر. رتب قائد الحملة شمر الجوشنی قافلة لا شک أنها کان ممیزة بحقارة توحی بأنها تلیق ببقیة تقیأتها مسرحیة کربلاء. عدة أحصن مجللة ببرادع مخططة کالأبراد، کانت تعتلیها حاشیة القیادة، و بعض جمال محملة بالمؤن و قرب الماء کانت تنقل زاد الطریق الطویل الممتد من الکوفة عبر واقصة حتی صحراء تدمر، و اتجاها مکدودا لا یرتاح الا فی واحات الشام، أما الحمیر، و البراذین المسودة تحت وطأة الشمس، و المحررة من البرادع و الأجلال، فکانت تحمل السبایا من النساء و الأطفال، و لیس بینهم إلا رجل واحد، فی مستهل الثالثة و العشرین من عمره اسمه - فقط - مع ابن ذی الجوشن: علی ابن الحسین. لقد سأله یزید، و هو ینقل السبایا و یصفهم فی قاعة القصر فی الشام، ملصوقین بالجدران: - من یکون - من الزمرة - هذا الناجی وحده من تحت السیوف؟ فأجاب ابن ذی الجوشن ببراءة الذئب یمسح بیده شفیته من لطخ الدم: - اسمه علی بن الحسین... لم یتلقط

بعنقه: لا نبل و لا سهم، و لم تغتسل بوريده نصلة السيف... لأن هزالا عنيفا من اسهال مستبد: عزله الى ما بين الحريم، فسلمت أمعاؤه من البقر الأحمر... [صفحه ۹۱] و قاطعه الأمير، و فى نبرة صوته رجفة من ضمير: - لا تكمل يا شمر... و دعنى قليلا أتبصر... فكوا أغلال القوم. خذوا الأسيرات ألى غرف القصر و ألبسوهن ثياب الأميرات. أما أنت أيها الامام، فلك ما تريد... الا أن تطلب ارجاع رأس أبيك اليك... سيقودك النعمان بن بشير - ساعة يحلو لك - الى يثرب... فعد اليها... ولكن... لا تتجاوز هناك الحدود... أرجو أن تودعنى بكلمة. و أجاب الإمام بصوته الخافت: - كلمتى الوحيدة أيها الأمير: لا تؤذ الرعية... لعل جدى النبى... يغفر. قاد النعمان بن بشير قافلة آل البيت الى يثرب. - أما الفتى محمد، فانه التصق بأبيه المأخوذ بحزن النفس، التصاق القشرة بقضيب البيلسان... لم يبك... لم يتأوه... لم تنقر شفتيه - بين الحين و الحين - الا كلمتان: «جدى الحسين»... أنا لا أحسبه الا استوعب الفجيعة كلها، بكل أبعادها، و كل مآسيها... لقد وهبه الله سبابة فى كفه نابتة من رهافة: لا هى من اللمس... و لا هى من دوحة الحس... و لا هى من دفقة الأحلام.. انما هى من سبيكة روحية ذابت على قضبان المشاعر... و هى من اختباء النهى فى الخلايا النائمة فى عب الضمائر. [صفحه ۹۲]

و فى يثرب

(۱) انها مدينة الأنصار، و هى المدينة المنورة، لقد تنورت بلجوء النبى الكريم اليها هاربا من ملاحقة الكفار. لقد كفكفته المدينة و هى تستظل عينيه الواسعتين، ففاضت عليها منهما دفقة الأنوار... تلك هى حكايتها التى لا ينتهى من حفرها فى أذن التاريخ أهل آمنة - أم النبى الحبيب - و هى المسلوخة من بنى‌النجار. لقد اعتادت هذه المدينة المطوية على حناياها الشهية أن تنعش ذاتها بالشهوة ذاتها، و أن تشرب ضوءها بعدسة عينها، و أن تأخذ الحق، و تشتبك به فلا تتركه حتى ولو حولوه صليبا و عليه صلبوها. لم تخذل هذه المدينة النبى و عانقته عندما ساقه الله اليها. انها هى التى ساندته و آزرته، و ضربت معاولها فى الأرض و حفرت له أساسات المسجد، و طيبت حنجرة بلال فرنم آيات الرسالة من فوق أول مئذنة هتفت بآذان الجزيرة: حى على الصلاة، حى على الفلاح، الله أكبر... و عندما تعبت عين الرسول من بث النور فى ساحات الجهاد، أغمضها فى الغفوة المستنيرة، فتناولته هذه اليثرب المعتقة كخمور الأندرينا، و أنامته فى أدراج الضريح، و لا يزال النور مسكوبا على أدراج الضريح. [صفحه ۹۳] و فتحت يثرب دفتى صدرها للحسنين الوافدين من الكوفة حتى يتدبرا أمرا شاءه الله أن يكون مقضيا... و عندما ارتشف الحسن نقطة السم، لفلفته يثرب بقميص الذكر، و أدرجته قرب أمه فاطمة الزهراء فى حنوات البقيع... لقد ماتت فاطمة من فرط الحنين، و لا- يزال المثوى الحنون حتى الآن مبلولا- بدفقات الحنين... و ها هى يثرب - فى اللحظة المرة - لا تدرى كيف تذرف الدمع، و لا كيف تنسى الالتياع، و على بن الحسين، يقف على أبواب زواريبها المترنحة، يتفل أمامها قلبه المسفوح على أبيه الحسين.. لقد أدركت يثرب - و هى تصغى الى حزن الراجعين من خريطة كربلاء - أن صورة الحزن أصبحت حية تتحرك فى الخواطر، و أن الحسين انفتل انبثاقا آخر، و أصبح رقعة من مساحة يتسع بها الزمان الملتف بجوهر الحدث... و أية قيمة للزمان ان لم ينغرس فى المكان و تخرج منه ألوان السماء؟. يا للحسين - تقول الآن يثرب، و قد احتضنت النبى و امتصته رسالة حية فى ألغازها و رموزها الناطقات؟ - يا له، يفسر أباه عليا وجده النبى، و يبذل دمه حتى تتلون بالحياة تقاسيم الصور... ستكون الرسالة حية به، يوم تحتويه الأمة معنى من المعانى الكبيرة التى ترفض الحقارات الذليلة، و تعشق الحق يفسره العلم الصحيح الواسع، و تنظم حواشيه حلقات الحجى. (۲) و انطوت العائلة فى يثرب بأفراد بافرادها الباقين و الناجين من تحت رزء الفجيعة. لقد عفا عنهم يزيد، عشيق الشام، وردهم مخفورين بالنعمان بن بشير، ذلك الذى ربط معاوية بقميص عثمان - ردهم الى يثرب، مدينة [صفحه ۹۴] النور، و مدينة آمنة أم‌النبى، و مدينة الأنصار... ردهم الى البيت القديم فى يثرب، فانطووا فيه بيتا ينام تحت ظلين: ظل كأنه القوس الممتدة من سقف المسجد الملاصق الى ما خلف بهاء المجرات، و ظل ناعم وارف، تغمر الساحة به - أمام بوابة البيت - شجرة آراك غرسها النبى الحبيب - فى ساعات اللهيب - حتى تتفيأها ابنته فاطمة مع رفيقها

بالصدق و الطهر على، و مع ابنيهما النجيبين الحسنين. فى هذا البيت - بأقاليمه الخمسة - تفتقت حروف اللغز المبارك، و حصلت عملية اذهاب الرجس، و مسح البيت بالطهر المطهر. هنالك بستان ممتدد خلف البيت بخمسمائة شجرة من باسقات النخيل، راح يعتاش بها أهل البيت بقيادة الإمام الجديد المتسلم مهماته الجليلة. الى هذه النخيلات كان يتجه الإمام زين‌العابدين ليسجد كل يوم بصلواته المناجية رب العالمين، و الى جنبه فتاه محمد المتيقظ على كل بادرة كانت تحصل أمامه بكل جديد نابت تحت عينيه. لقد بدأ التدرج ينبت سنابله فى الظل الطرى: سؤال من هنا و لمح من هناك، و كانت تتوضح فيهما آفاق تنبسط بها الأبهاء. (٣) و الحزن... انه العميم فى يثرب - تجمعت به و جاءت كلها الى محارم البيت تشاركه بدمعها الأحمر، و تغرق معه فى مهابات التأمل... لم تخف يثرب من الدمع يقرّح عينها و أجفانها، ولكنها استعذبته يجلو النفس فيها و يجللها بنقاوة الايمان. صحيح إنها خسرت اماما حسينيا بهيا، ولكنها ستجده فى حقيقة الذكر، و حقيقة النهج، حيا فى مهجتها، يعلمها كيف تنتصر على الذل و الضيم برفضها الحاكم يرهقها - بهما - و هو المتولى شؤون الرعية... [صفحه ٩٥] انه الآن يعلمها حقيقة العلم: أن العدالة و الاستقامة موهبتان مستنيرتان بالحق يجلوه العلم، و الفهم، و نقاوة الوجدان، و أن البيت الذى ينجب مثل الحسين هو المتسلسل فى حقل المواهب النبيلة المتشددة بالحق المتمرس بحقيقة الرهان... انه بيت الرسالة ينطق بها نبى طاهر العين، و طاهر اللب، و طاهر الخميرة، و ها هى مقاصده الطاهرات الزاهيات، يجاهر بها على مفسرة به كأنه كل الحق. المجدول فى مسلسل الآيات... ليس الحسن الا اماما مسطرا بنهى البصيرة، و ليس الحسين غير صوت آخر، يصغى ضمير الكون الى عمق صداه، و ها هو البيت يستمر مشدودا بهذا العلى الثانى الذى شاهد عاشوراء أبيه تزفر زفر الجحيم - ليس على أبيه - انما على حاكم غبى جرده الجهل من العلم، و من الحق، و من اعطاف التبصر، فارتكب الجريمة الشنعاء!!. كل يثرب جاءت تشارك أهل البيت، و استهامت بالمشاركة: تارة دمعا لا تقدر أن تحتجزه المقلة، و طورا انسكابا فى تأمل و صمت يشهدان لها بالتأهب الضمنى لحسن التبصر فى القضايا الكبيرة التى تخفف من قيمتها فى المجتمع كل المتاهات المبتعدة عن احتياز العلم، و عن الاعتصام بالحق و الصواب. جابر بن عبدالله الأنصارى تبصر به النبى طويلا، و تمنى عليه أن يعيش فى يثرب كما تعيش الخمائر فى أشواق الطحين، و تمنى له أيضا أن لا يرمى من يده عصا الشيخوخة الا بعد أن تقع عينه على فتى من صلبه شبيه به - هو الرسول - خلقا و خلقا، و أسرع هذا الصحابى معكزا على عصاه العتية، يشارك الآتين من كربلاء مصبوغين بحزن الفجيعة... شاقه أن يرى الحزن لا يستقر فى النفس الا ويبنيها بناء جديدا، فيه من التصبر و التبصر ما يضاعف الايمان بالرشد، و يشدد البطولة فى تحمل البلية... شاقه أن يشاهد المعتدى عليه لا ييأس من معونة ربه، و لا يحقد الا على الجهل العفن القائم فى سريرة المعتدى. [صفحه ٩٦] وقف هذا الصحابى الذى استطابته عين النبى، خلف الإمام على بن الحسين الذى لا يزال فتيا فى امامته الملقوطة بفداحة الحزن، و لم يبادره الا بعد انسلاخه من سجوده الطويل، و الدمع الأحمر يحفر قناة فى وجنتيه الذابلتين - قال له ما معناه: - سيدى الامام، لماذا تحمل نفسك مما يضنى جسمك الهزيل؟ الأمة بحاجة اليك يا سيدى. ترعاها بجهدك المتعافى. لا بحزنك المتمادى... سمع الفتى النجيب محمد، مقالة الشيخ الوقور - و هو من الخلف مطرقا يصغى، فاتجه اليه يأخذ يده و هو يقول: - بالأمس يا عم رجوت أبى مثلما رجوته أنت الآن: أن يخفف عن نفسه عناء يهزله و يضنى جسمه. فجدى الحسين قد غاب - و ترك عليك يا أبى صدق المناب... أبى يا عم لم يصغ الى - عساه يصغى اليك. تناول الشيخ الفتى بين ذراعيه، و تفرس به مليا ثم قال: - أنت حكايتى الطويلة يا ابنى، أخبرت جدك الحسين بها. فسماك باسم محمد. أنت شبيه بجدك النبى يا محمد - لقد كلفنى أن أقرئك السلام. بعد أن أقولك لك: انه لقّبك بالباقر. - الأمة بحاجة يا ابنى لمن يبقر لها العلم. فتستنير به فى مشوارها الطويل، و تنجو من جهل يعتم عليها المسير. [صفحه ٩٧] و أجاب الفتى بكل اتزان: - سأستعين بأبى الإمام و ألبى جدى العظيم. - سأستعين بك فى تركيز مقاصد جدى الرسول... منذ هذه الساعة المليئة بالفهم و العزم، كتم الإمام على بن الحسين حزنه فى عبه، و اتجه نحو المسجد يوسع فيه مقاعد الدرس - يا لجامعة أهل البيت يركزها اليوم امام تلوّن اسمه و أضحى: زين‌العابدين. [صفحه ٩٨]

زين‌العابدين

(۴) منذ ما یقارب الخمس أو الست سنوات و الإمام الصغیر محمد یتنقل فوق الأرض فی یثرب، لا زاروب من زواریبها العتیقة الا و أصبح یشعر: أن خطوات العابر فیها - ناعمة - کأنها لمس فراشة، و خفیفة، کأنها من الحلم مسروقة، هی للامام الصغیر الذی یمشی کأنه الغافی، و بین تجاعید شعره مهابة تطل علی جبینه کأنها دهشة رشیقة الظل، و هی به مستورة. هکذا بدا لی أن أصف خطوات هذا الإمام و هو فی صغره، مع العلم أنه سیمشی بها ذاتها فی کبره، علی فارق شکلی لا جوهری، سیعینه: نمو القدم، و تضخم الساق، و بدانة الجسم، أو تطور صحی آخر، یلون القیافة و یدق فیها جدیدا من میسمه. دائما هی الخطوات السلیمة و الصحیحة و البریئة، تحمل شکلها، و صدقها، و لونها مع الصغار، صافیة و خالیة من التصنع و الدجل... مع نوع من التأکید ان نوعیة الخطوة التی تألفها و تحفظها قدم الانسان، هی تعبیر دقیق عن نسبة الصحة فی بدنه، مقرونة بالعوامل النفسیة - السلیقیة - العقلیة النائمة کلها فی شخصیته المهیأة للبروز. ان خطوات الانسان - و هو یمشی - هی المکیفة بما هو مخبأ فی ذاتیة صاحبها من مزایا و صفات، لو صح تعهدها و استدرارها، لنطقت بالحقیقة [صفحه ۹۹] الکامنة فی تلک الخلیة. ان یکن البحث هذا بحاجة الی تعلیل فلسفی - نفسی، أو فیزیائی أو کیمیائی له ضلع من ضلوع المعادلات... فما أحرانا ننتظر أمامنا الصغیر حتی تشتد خطواته، و تمنن ضلوعه و فقراته... و ساعتئذ فهو المدعو الی تجهیز الجامعة العلمیة فی مسجد یثرب بمواد الفلسفة، و الفیزیاء، و الکیمیاء، و علوم الأشیاء، و الهیئة، و الحساب، و الهندسة... سیقدم لنا مثل هذا التعلیل الموجه - هو بذاته - من فوق منبر جامعة المسجد، إذا تصبرنا الی ذلک الوقت و انتظرنا... (۵) و خطوات الإمام الصغیر، أکثر ما کانت تشد به - باکرا من کل صباح - نحو الدار التی یسکنها صدیقه الشیخ الجلیل جابر بن عبدالله. لست أدری إذا کانت الصداقة بین الناس تغطی بعضا منهم بمثل هذا النوع من الشغف المصقول، و الذی یأخذ کلا من الشیخ الأنصاری، و هذا الفتی النجیب المطوی فی ذاته کما ینطوی النور فی زجاجة المصباح. لقد کان هذا الشغف، عند الشیخ المسن: یأبی علیه - لحظة یدخل علیه الإمام الصغیر - الا أن یأخذ یده، یقبلها و هو ساجد، و فی عینیه دمعتان لا تنحدران و هو یقول: - کیف لی أن لا أتصرف هکذا بین یدی من هو شبیه بسیدی الرسول؟. أما الإمام الصغیر - بعد عجزه عن اقناع الشیخ بالاقلاع عن مثل هذه الوتیرة - فانه راح بدوره یجلس ازاءه، طابعا علی متن کفه قبلة یعمقها الوقار، و رأسا کان یبدأ بالحوار. لقد کان الحوار ثمینا هذا الصباح، بدأ بطلب مقتضب، ولکنه مغلف [صفحه ۱۰۰] ببعد روحی و فکری و نفسی مشتاق الی استکشاف عن الحقائق الکبیرة الدائرة فیها نوازع النفس، وارادة الله المصبوبة فی کنه الحیاة و أزلیة الوجود. أما الشیخ الوقور المتقبل الطلب بکل ما فیه من أبعاد، فانه کان ینطوی الی نفسه و یتناجی بالصمت المقدس الجائل فی خلده: - یا للشبیه الذی تجاوز عمره الصغیر المحدود الآن بعشر سنین. الی عمر آخر کأنه أوسع من عشرة دهور.. أتراه یقرع أبواب المطلق، اذ یطلب منی کشفا عن حواشی المطلق؟. لقد کان الطلب محصورا بتوجیهه الی رجل ربط عمره کله بعمر النبی فی رفقة لم تنقطع... انه کشف شامل عن کل ما یعرفه هذا الصحابی الممتاز عن حیاة الرسول ، ألم یخصه الرسول - دون سواه - بنقل الوصیة الی حفید له متحدر من صلبه، و شبیه به، طالبا الیه أن یکون واحدا فی خط الامامة موکولا الیه أن یلبی الأمة بأشد ما تحتاجه الأمة: و هو تفجیر العلم الذی به تستنیر... لقد عین الإمام الصغیر حیثیات الطلب، و قید الشیخ بالجواب علیه، لأنه کان المخصص بحمل الوصیة. لقد شعر الصحابی الکریم بثقل الطلب، و أدرک ملیا أن الإمام الصغیر الذی هو الآن فی تمام حضوره، هو الممثل الممتاز لجده الرسول،و أنه فرض ارادته بنوع من طلب و لا بد من أن تلبی الارادة بنوع من أنواع الخضوع. و لقد أدرک الإمام الصغیر - بدوره - أن السید الجلیل الغارق أمامه بصمت الخاشع المتأمل، یحضر کل قواه الفکریة و الروحیة و الذهنیة لتقدیم الجواب الوسیع و الطویل و المجهد، لهذا رأی أن یخفف عنه حجم العناء فقال: [صفحه ۱۰۱] - أنا أعرف یا عمی الکبیر أن طلبی لا یکتمل الجواب علیه... لا بوقت طویل و لا بوقت قصیر. لقد لمح لی أبی الإمام عندما التمست منه - أمس - ان یعرفنی الی حقیقة جدی الرسول. فکان جوابه: (انما جدک الرسول هو ضلع من ضلوع الشمول... رویدک... خذه علی مهل - بما یملیه علیک اللمح المتبصر - کلما احتکت عینک بحرف من حروف الآیات المدرجة فی کتابه الکریم... لقد أکبرت

الجواب و احترمته يا سيدى، لهذا فانى سأكتفى منك. بأن تقدم لى بعضا من لمحك حتى أشترشد و أنهض الى القيام بما هو موكول الى... لقد بلغتنى - أنت يا سيدى - ما هو موكول الى... ألم يطيبك جدى بعلم و بيان توسع بهما الطريق أمام قدمى المستعدتين للعبور؟ سآتيك مع كل صباح ينجلى به الغد، حتى نفى - أنت و أنا - نذرا وعدنا به جدى الرسول. قال الإمام الصغير مقالته هذه و انسحب خفيفا كالطيف، أما الشيخ المجلل بالوقار فانه تماسك بركبتيه الساجدتين، و رأسه مغمور بهالة كأنها من فيض المناجاة. (۶) لم يعد الإمام الصغير يعرف كم صباحا مر عليه مع صديقه السجاد مثله فى حضرة جده الغائب المالىء جو المكان. كان الشيخ - وحده المسترسل بقول كأنه الهدل، و كان الفتى - وحده - المصغى الى هطل كأنه النهل. لا بدع... فالصدق و الحق - كالشوق و التوق - وحدهما - فى زينة النفس يملآن فيها الفراغ. [صفحه ۱۰۲] لكى يترك الشيخ شيئا من الحواشى، و هى المنبثقة - أبدا - من دائرة الجوهر، الا ـ ولمسها فى تطوافها الصادق: تكلم عن جدود النبى فى أمة الجزيرة، و هم الأبعدون، شبه الملموحين، مع الذين أصبحوا معروفين فى حقبات التاريخ... و راح يهاجر معهم زرافات زرافات، ثم أفواجا أفواجا، الى كل جهة من جهات الجوار، و لا سيما الجوار المشدود بأرض الشام و العراق، و أرض البصرة و الكوفة، أو الأرض التى ترضع من أثداء النيل... لقد امتزجوا بالأرض التى حلوا بين ظهرانيها، و اشتركوا مع القدامى فيها بالعمران و الانتاج، و أدوا قسطهم مما أحرزوا من فهم و علم، حققوا بهما أبجديات و حضارات. و تكلم عن الجدود الأقربين، و من أميزهم الهاشميون الطالبيون و المطيبون بظهور النبى. هنا ابتدأ الكلام الحميم: عن الأب، و عن الأم، و عن الولادة، و عن الفتوة، و عن السلوك المتفرد بالمزايا و الصفات، و عن الزواج، و عن الانجاب، و عن تعلق الأمين محمد بعلى كما يتعلق السحاب بالغمام، و عن تحسسه بارتجافات ممغنطة و منزوفة من تأودات الروح و عوالم الغيب، و عن الاختلاء فى غار حراء كأنه تفجير التأمل و استرفاد التخيلات. لا شك فى أن الأحلام كلها قد استنزلت من عوالمها و راحت تتجسد فى الحروف الموسعات، و راحت الرسالة تفتش عن الدروب لتملأها بالتنزيل الهابط من علو السموات ... و ابتدأ الصراع بين حق تنتصر به قيمة الانسان، و باطل تنحط به قيمة الانسان. من مكة الى يثرب تم الذهاب، و من يثرب الى مكة تم الآياب... من هناك - هروبا - الى هنا، و من هنا - رجوعا - الى هناك، تم النصر بسواعد الأنصار، و قرت عين الرسالة و تحقق الاسلام. [صفحه ۱۰۳] هنا استفاض حديث الشيخ و التهب ببطولات الأمس، وراح يتكلم عن صدق الأنصار باقتناعهم بروعة الرسالة... و تكلم عن كل الوقائع الحربية التى حصلت بين المدافعين عن الرسالة و المتنكرين لها، لا سيما معركة أحد، و الخندق، و خيبر، و قينقناع... و استفاض الحديث عن دخول المنتصرين مكة، و تحطيم أصنام الكعبة، و تحرير الجزيرة من عبادة الأوثان. هنا توقف الشيخ قليلا ليفهم امامه الصغير المستغرق فى الاصغاء، أن كل ما عرضه حتى الآن هو حاصل تمهيدى و تحضيرى يعين قيمة الرسالة من خلال الجهود الطويلة و الثقيلة، و المهج العزيزة و المبذولة، من أجل الانتصار بها رسالة يقوم بها - وحدها - مجتمع الانسان... و لقد رأى أنه من الضرورة أن يحيط الإمام علما بها، حتى يلم بكل الشؤون. هنا ابتدأ الفاصل الثانى و قد ارتدى ثوبا أجل و أوسع: تناول المجتمع و أهمية المجتمع، و تناول الجزيرة و تاريخ الجزيرة مع كل ما فيها من رمال، و واحات، و قبائل، و حبال أطناب، و توقف مليا على كل حرف من حروف الرسالة، و كم هى - وحدها - الناطقة بجهود الرسول و نبوة محمد... و تكلم عن الامامة المرصوفة على المتانات النادرة، تركيزا على عبقرية فذة اسمها «على»، و وصولا ـ الى تحقيق باهر مختوم بانتصار المهدى المنور بالحق فى مجتمع الانسان... سيكون المهدى، و هو الإمام الأخير المرتجى، اندماجا حضاريا فى مطلق مجتمع من مجتمعات الانسان فوق الأرض، يحققه العلم الوسيع بالحق، و الفهم، و العدل، و النظافة المثلى التى تحرزها حقيقة الانسان. أما العلم المطلوب فى ايصال المجتمع الى حقيقته الناصعة، و نزاهته الجلى، فهو الذى تبشر به الرسالة و تحتويه من دون شرح و لا تفصيل، و هو الذى يتوسله المجتمع، بعد أن يكون الباطل المخيم تحت أوتاد [صفحه ۱۰۴] الجهل قد ضرب سنانيره فى المجتمع و كاد يشل أوصاله... و عندئذ فان المعاناة الطويلة من جرة أذياله، هى التى تحضر الانتفاضات الرصينة للتخلص من رعونانه و غباواته المستهجنة... سيكون العلم - وحده - ملفوفا بالرسالة، فى تحقيق الثقافات المنتصرة على الجهل و الظلم، و مص الدم من كل وريد تنبض به مهجة الانسان فى مجتمع الانسان. لم يرد الشيخ الا أن

يختم حديثه بهذا القول: - أرجو أن تأخذ منى عذرى يا سيدى، فأنا ما قصدت أن أرشدك، بل أن أطلعك، بأن كل ما قلته فى مسمعك هو جزء زهيد مما ستحيط به فى مطلع الغد جدك النبى، يا امامى الصغير، هو الذى زرعك فى الامامة... لو لم تكن لها ما زرعك... الأمة ذاتها - فى حاجتها الى العلم - ستفتش عنك - حتى تجدك... و لن تجدك ان لم تكن أنت فى الحجم الوسيع الذى يعبى ضلوع الدائرة... و ليست الأمة الا الدائرة، و هى المؤلفة من كل فرد فيها، و من كل يوم لها، و من كل عمر تطول به فسحة الغد... و لن تكون الدائرة الا فى متانتها، و الا... فانها - من لحظة الى لحظة - هى المنهارة. العلم وحده يا امامى الصغير، يحضر الركائز، و يمتن الخيطان التى ستنفتل حبالا، و من يوم الى يوم أطول، تشتد الحبال و تنشد بالقبضان. عندما يتسع العلم و يزهو، و تتملكه الأمة و يغدو فى موعدها المثقف، يكون قد حان الوقت لانتصار الحق و التعبد له... ان الأمة كلها - فى الوقت ذاك - ترفض أن ترى فى ساحاتها العريضة حاكما يرنو اليها و فوق صدغه نقطة سوداء. [صفحه ۱۰۵] تفوه الشيخ بمثل هذا النهج و هو كأنه الحالم... ثم تحول نحو الفتى و لفه بعينيه و أكمل: - لو أن الأمة بلغت هذه السوية الرهيفة لما ريعت عينك برؤية جدك الحسين ممزقا فوق الرمال.. ألا تقول الآن معى: ان الجهل هو معتم البصائر. و ان العلم هو المزين الضمائر. لقد وصاك جدك الرسول بالعلم الكبير، لا- بالعلم الصغير... فالعلم الصغير هو الذى تتزين به وحدك. أما الكبير فهو الذى يربو اليوم ليكبر به الغد الذى يتألف منه الدهر، و الذى هو بحجم الرسالة التى هى الأمة فى حقيقتها العظيمة. خذ العلم - بهذا الحجم - اليك، و فتش عنه اذ يفتش عنك و هو يأبى الا أن يجدك. - و العلم ذاته سيفتش عنك حتى تفجره للناس - و لو أجهدك - فاطلبه قبل أن يطلبك. فتش عن حملة له فى مصر و جنديسابور فلك فيها أهل أوفياء... نالوا من جدك سماء، و لن يمنعوا عنك استجابة النداء. و أيضا فاطلبه من الهند ... و من الصين.... و من كل رجا من الأرجاء... حتى من الاغريق، فهم الذين انتقلت إليهم - من جدودك الأقدمين - تلك الحضارات. فالعلم حق... و هو كالنور هبة من الله... و لن يحجز النور... تحت مكيال... [صفحه ۱۰۶] ما تلفظ الشيخ بالكلمة الأخيرة، حتى انحدر خفيفا خفيفا برأسه على ركبتيه الساجدتين،،، و غلفه الصمت: بعد لحظات صارمة، أدرك الإمام الصغير أن صمتا ساجدا تناول الشيخ الى جده الحسين، و جده الرسول... بعد أن أدى الوصية و وفى النذر... (۷) ما كانت يثرب تعرف الحزن الطويل المعصور من ألم النفس، الا بعد أن أغمض النبى عينيه و اندمج فى حقيقة الذكر. لقد حفرت له تحت مئذنة المسجد جدثا موصولا بالقبة التى تخفق كل يوم بالنجوى العلية، و هكذا الحزن نورها - هذه اليثرب - حتى غدت به كأنها ذوب من العشق المقدس. و عندما غرق على فى فجوة الجرح المدمى، عجنت يثرب حزنا بحزن حتى لا ينتسى الحزن الرفيع... و لما انصبغ الرمل فى كربلاء بالصبيب من دم الحسين، هبت الى بقيع الغرقد توقظ الاثنين: فاطمة الزهراء بنت الرسول، و ابنها الحسن المؤمم، و هو يتلمظ الثمالة فى كوبه المسموم، و حزمت - يثرب - الثلاثة المطهرين، فصارت ضلوع الحزن خمسة يلامس بعهضا بعضا فى مردات الحنين... يا لك - يثرب - و الحزن يغرقك الآن فى عمق التأمل، و قد صمت شيخ من أبنائك الميامين المعمرين اسمه جابر بن عبدالله الأنصارى، بعد أن تفوه - طويلا طويلا - بحب الرسول. ها هو اليوم يصمت بعد أن زرع الأشواق كلها فى لب الشبيه بجده، حتى يتقن العلم الصغير، و يبنى به دوحة العلم الكبير... [صفحه ۱۰۷] ان الأمة جمعاء يا جابر تدرك أنك حملت وصية و عرفت كيف تزرعها فى الأذن الذكية و الوفية... فكيف ليثرب - و قد مارست روعة الأحزان - و هى الثقيلة عندما تكون شقا من قضية، أن لا تبكيك و أنت منها العريق فى ادراج الرسالة. [صفحه ۱۰۸]

العلم الكبير و العلم الصغير

(۱) منذ أكثر من سنتين و الإمام الصغير فى رفقة الشيخ الكبير، يجالسه، و يتذاكر العلم و الشرح بشغف و اشتياق، ولكن اشتياقه - فى الجلسات الأخيرة - راح يسوح به الى اصغاءات يغشاها كثير من ذهول، و كان بدوره - هذا الذهول - يأسر الشيخ فيضاعف الجهد من تظهير الصور. انها الجلسة الأخيرة - بالتمام - و قد أذهلتنا أيضا، تمتمتها شفتاه المشتاقتان. و لثمتا الصمت. و منذ هذه اللحظة الكبيرة

تلبس الذهول وجه امامنا الصغير، على أن لا يفارقه كل العمر. لقد كان هذا الذهول - فى المبتدأ - نوعا من التبصر فى صدق القضايا الكبيرة تدعو الإمام الى تفهمها و الغوص فى مخارجها المتشابكة الخطوط، و ها هو الآن - هذا الذهول - يمزجه الفتى بحزن يحرك الدمع حتى يغزو المآقى، و هو كأنه الحزن ذاته، يصف الإمام الصغير مع الباكين فى يثرب قرب أبيه زين‌العابدين، و لما تنشف بعد عيناه على الشهيد العظيم أبيه الحسين... و ها هو - هذا الذهول الأصيل - يتدرج و يتدرج، حتى يستحيل الى مهابة مطبوعة بوقار... ان العلم الذى دعاه جابر الى أن يفيضه على المجتمع، هو الذى سيكون ألوان هاتيك المهابة، و عمق ذاك الوقار. [صفحه ۱۰۹] (۲) ولكن الإمام الفتى، و ان تصورناه - تجاه فقدانه الشيخ الشبعان من رفقة جده الرسول، غارقا فى حزن لا يجوز أن يصمت... الا أن حزنه هذا كان فى عكس ما نتصور: فهو لديه - الآن - ذهول عميق، تأبى النفس الا أن تنغمر به، كأنه الفرح، تنتعش به الذات فى تجلياتها الصادقة و الصافية. ان هذه التجليات بالذات، هى التى نقلت الشيخ. الى ذهن الفتى، و انسكبت فيه - به - عندما تكلم لا عندما صمت... نقلته روحا و لا بدنا... نقلته أريج الزهر لا ورقه... نقلته حركة لا همودا... نقلته ضراما لا رمادا... نقلته اتصالا بالرسول لا انفصالا... نقلته انفتاحا بالرسالة لا انكبابا فى الجهالة... نقلته علما صغيرا يزهى النفس، ثم علما كبيرا يزهى الأمة بالمعارف و المطارف، لا بغاء يحقر الذات، و يطيل عمر الذئب و الضب، و الخفاش فى مجتمع الانسان. بهى هو جابر فى ذهن فتاه النجيب... لقد وصله بجده الرسول وصلة حياة تنعش القلب، و العقل، و كل خلايا النفس، و كل طويات السريرة... فحرام نعتبر الشفة التى تكلمت: ماتت اذ صمتت، فهى حية بما نبست، و ذلك معناه: لغو وجود كلمة الموت فى قاموس الحياة... أما الشفة - و لم تنقشها كلمة - فهى التربة المعقمة، فلا الموت تعرف، و لا الحياة تطالها برشة من اكسيرها المحيى. على مدى بضع و عشرين سنة - فى ما بعد - كمرحلة اعدادية سبقت تسلم الإمام مسؤولياته المعنية له فى فسحة العمر، راح الإمام يمضغ كل حرف من حروف الكلمة التى صبها الشيخ الصامد الآن فى خلية الذهن، على أن يركز كل ما يشتق منها فى خلية الضمائر، جنبا الى جنب مع كل المجتنيات المنبثقة منها: علما، و فنا و اداء، و فيض أرخيات. فالمضمار [صفحه ۱۱۰] الطويل فى حياة الأمة، و مجالات الاختيار، هى التى تعين حجم القصعة المسكوبة فيها وجبات الطعام، و لن يلونها - بالخير - رغيفا شهيا، الا العلم الآتى من مناجم الروح، كأنه الرشد المشطور من لمسات الخمائر، أو كأنه تفجير الحق تحمله الآيات المولعات بهمسات الضمائر. كل ما قاله الشيخ المالىء فسحة البال، مضمخا بضمير الرسول ينظم القوالب لمحاصيل الغد، كان هم الفتى فى التحليل، و التعليل، و توسيع الردهات لمدى الاستيعاب... لن يكون الزمان، ان لم نلقحه بأنباض المكان الخافق بروح الانسان. (۴) لقد كان كل ما قاله الشيخ فى مستوى الهمس، لا يفسر المعانى، بل اليها يشير، فشأنه كالعناوين يلقى الواحد منها صغيرا فى صدر المقال، يحمل الاشارة الملغزة، و على المقال مهمة التفسير، و مشقة التطويل... من هنا كان الفتى يتلقف الاشارات، من دون أن يرهق صاحبه المسن بشرح مستفيض، مكتفيا بها - ما أمكن - لأن الكشف المطلوب عن حياة النبى، و عن كل المرامى المرصودة فى مضامين الرسالة، لا يكفيه عمر، و لا دهر، حتى يتم شرحه و استيعابه... ان المجالات الفسيحة فى مجتمع الانسان، هى التى تستعين بالتحقيقات الرخية، ترجحها حقا، و خيرا، و أضاميم من جمال - تنبهات العقل، و تيقظات النفس، و كل الأحاسيس الباطنية تزرعها الحياة فى عمق الطوايا... انها كلها هى المكتشفة، كلما امتد أمام المشاة طول الطريق، و هى التى تتوضح فيها البينات: بأن الرسالة التى انتشى بها نبى المسلمين، هى من الحياة بنت الحياة، و هى بنت الظلال المفيئة، يطول بها الوروف بقدر ما يطول بها الخطو فوق الممرات. [صفحه ۱۱۱] ان الفتى الذى سمى - قبل أن تلمح عينه النور بعشرات السنين - بالباقر، هو من التيقظ الفكرى و الروحى، فى سوية مرموقة، جعلته، يحاور الشيخ الوقور، مكتفيا منه بالاشارات النائمة فى حروف العناوين، على أن يأخذها - مع الوقت الطويل - بالدرس و التنقيب... سيكون الغد كريما جدا، بتفسيح الهنيهات، يدخل فيها العلم - بخطواته المضيئة - ينورها رويدا رويدا، حتى تستفيق - فى لواعجها - مهامس الآيات. (۵) العلم الكبير و العلم الصغير... و أدرك الإمام الصغير أن العنوان الملفوف بضلعين هو ذاته الوصية. يحملها اليه - من جده الرسول - مبلغ أداها ثم انطوى الى الحق الرفيع... يا للعنوان.. ما أوسعه فى فسحة المضامين، و ما أروعه صغيرا كحبة الحنظل فى اجاصة مر الصحارى، تعانقها الرمول المنداة

بالأشواق، و إذا بها - مع كل صباح شهى الفجر - تتمدد جذورا، و تتماشق ساقا، و تتفرع أغصانا، و انساما، وافياء، و أفنانا، و أطيابا غنية. انه العلم الصغير، مجبيا من ضلوع المعرفة - يتناوله الفرد فى المجتمع - و يوسع به خلايا ذهنه و جيوب روحه، و آفاق عزمة فى التصعيد و الادراك، ليكون له قسط فى الجلوس بين الملتمين حول المائدة التى تولمها الحياة لأبنائها الأحياء. أما العلم الكبير فهو دائرة أخرى تنمو و تتوسع بالأفراد المرتادين حياض العلم، فيزدان به المجتمع، و يصلب عوده، و تبهو مداركه، و تصفو أحلامه، و تتوضح تحقيقاته، و آماله، و أمانيه الكبار. العلم الصغير هو زينة الفرد فى طاقاته المحدودة - انه ثقافته الخاصة على قدر معين - قد يوسعها الاستيعاب و يبرز بها الى نوع من عبقرية، [صفحه ۱۱۲] ولكنها تبقى فى نطاقها الفردى محصورة فى مميزاتها الفذة من دون أن تبلغ الوزن الواصل الى حدود المطلق. أما العلم الكبير فهو ذلك المؤلف من كل طاقات الأفراد الذين يحتويهم المجتمع عاديين و متفوقين على السواء، ليكون له، من التفافهم فى دائرة الحوض، قوة محزومة من ضلوع المعرفة التى هى شمول العلم الوارد من جميع فروع الاختصاصات التى لا يتمكن من احتوائها الفرد، مهما توافرت و تضافرت طاقاته، بينما يكون المجتمع هو المنيع بمجموع أفراده، و هو المتمكن من مثل هذا الاحتواء المعزز بنوع من الشمول. أولا- و أخرا هو المجتمع فى لوالب الحركة و عمليات التحريض: فاذا تشدد به العزم و تحركت فيه بوادر اليقظات، فانه الى مسيرة ناشطة تخلصه من شلل الركود، و تدفعه الى مجالات التنقيب و الاستنارة، أما التحقيق فزيادة تنمو على مهل فى عدد الأفراد الموفورة لهم السبل السعيدة... بقدر ما يزداد عدد المثقفين تزداد - بالمقابل - مناعة المجتمع بمداركه الرخية. هكذا يتعزز العلم الصغير، ليتوسع - بدوره - العلم الكبير. أما العلم الصغير فطاقات منثورة، و أما العلم الكبير فوحدة مجموعة فى وحدة الاطار. أما وحدة الاطار فهى الحق النابت من واقعه الأصيل، من حقيقة المجتمع، من سعيه الصادق، و الصريح، من روعة الحق الذى هو علم وسيع، و معرفة مضيئة، و كشف حثيث و أمين عن جوهر الحياة فى لب الانسان تصدق به مجتمعاته فوق رحاب الأرض. و العلم الصغير منوعات متعددة الاختصاصات و ملونة المواهب، يتطلبها المجتمع و يوزعها على مناكب الأفراد، و الموزعين فوق أرجائه، حتى تتسدد من مجموعهم كل حاجاته و جميع أغراضه... أما المران و المراس، و الملازمات الوفيرة، فهى التى يكسبها الفن ثقافة عاشقة تميزها بالخبرة الأنيقة المتمكنة من الصدق المصيب. لكل فرد فى المجتمع جناح [صفحه ۱۱۳] خاص يعمل فيه بنوع من خيط و مكوك يكمل بهما - بين يديه - توضيب النسيج، أما النسيج فهو القميص الذى سليبث يرتديه المجتمع على أمل أنه سيزيد - مع طالع الأيام - متانة و زهوا. الحاكم بدوره هو فرد بيده خيط مبروم على مغزل، و أمام صدره نول يلعب بين سداه و لحمته مكوك يشهد للحاكم بأنه بارع و رشيق بتمريره بين تشابك الخيطان... و الا فان المجتمع هو الخائب بارتدائه قميصا لا- يستر عريا... انها الحتميات تقول: لن يكون علم كبير ان لم يجمع أنواله علم صغير صادق. و لن يكون كذلك علم صغير ناجز، ان لم يمهد له المجتمع المركز، بسط الشوق، و التوق، و يؤججها بلواعج النفس و يقظات الضمير... (۶) لقد كانت الوصية صغيرة مقتضبة، و فى منتهى البساطة، لقد سكبها حاملها الشيخ جابر فى اذن حفيد الرسول، بهذا المعنى: (أنت شبيه بجدك يا سليل النبوة - فهو يقرئك السلام. و يسميك بالباقر - فقم بمهمة تفجير العلوم حتى تستقيم لأمة جدك النبى طوالع الأيام). لم تكن الوصية بأوسع من هذه الاشارات، ولكن الإمام الصغير راح الى دوحة نفسه يستفسرها عن تراكيب الاشارات ذاتها التى كان الالهام يستمطرها على الرسول من مجادلها البعيدة الأغوار، يسوقها الفن الى بيادر الفهم حتى تتناولها المدارك و تمضغها على مهل فتنهل من أزبادها متطلبات الأيام. لقد أدرك الإمام الصغير، بعقله المشع و يقينه المتبصر، و بنوع [صفحه ۱۱۴] خاص، بتنقيبه الملح عن الحروف كيف ترقص بها المعانى، من لون الى لون، كلما تغير بها رصف الاشارة. لقد لاحظ الإمام الصغير أن جده الرسول هو - وحده - أبرع من يصوغ اشارة، و أن كل آية من آيات كتابه هى من ذات الصياغة، و من أروع ما تتجلى به اشاراته فى سكبها المشرع، انها تكتسب معنى جديدا و لونا جديدا من اللحظة ذاتها التى تطرح - هى - فيها... انها للانسان، و فى كل جيل من أجياله الصاعدة، تفسر حاجاته، و تتلون بها كما يتلون الضوء بما تصطبغ به زجاجة المصباح. ما أخذ الإمام الصغير الوصية الا و اعتبرها اشارة تحمل ألغازها و أبعاد مراميها، و لقد أدرك مليا أن الوصية الى احتكت بلبه، هى من نوع الآيات التى تتدرج بها ميادين السور. و بعد التبصر و الاصغاء الى

تـأودات الحروف فى ملامـح الأبعـاد، توضـح له أن الأمـة التى اهتـاجت بهـا الأـشواق الى كتـاب تقرأ فيه كل ما يعلمها كيف تمشـى خطوات سـليمة فوق المفـارق فى الـدروب هى التى من الله عليها بالكتاب، و ها هو بين يـديها - هـذا الكتاب - و هو ملىء بالاشارات الناطقـة بالآيات، و ما عليها الا أن تتعلم القراءة حتى تشع فى عينيها أضواء حميمة تنقلها من غيهب الجهل الى بهجات البصـيرة. (۷) ما على الأمة الا أن تتعلم... يا للوصية فى حروفها الصغيرة و فى بساطتها المنيرة... كيف تطرح الأغمار على البيادر، و تدعو الأمة كلها الى المفتوت من خيرات السـنابل... ان الأمـة كلها هى المـدعوة الى الغرف الثمين، بكل ما فيها من واحات ضـئيلة و حرات ثقيلـة، بكل ما فيها من قبائل مشرورة، يشتتها التفتيش عن المراعى فلا تجدها الا فى الأحقاف هزيلة يابسة... بكل ما [صفحه ۱۱۵] فيها من مدن تظن أنها فى مظلـة من عمران، بينما هى فى جاهلية لا تعرف كيف تصل حرفا بحرف من حروف الهجاء حتى تؤلف الجملة المفيدة... مكة وحـدها، فى عمرها القديم و شوقها المقهور، حاولت أن تؤلف جملة مقروءة، فبنت الكعبة و كسـتها بمئات من الأوثان. ولو لم يعلمها نبى من صـلبها أين عليهـا أن تضع الحجر الأسود فى مكان الاشارة الرامزة الى هالـة التوحيـد، لبقيت حتى الآن - ربما - ساجـدة تحت أقدام صـنمية... ولكن النبى العظيم حطم أمام مكة و أمام يثرب، و أمام القبائل كلها المشـرورة فوق مساحات الجزيرة، كل الحجارات المنحوتـة بازميل أعور، و نجى الأمة كلها من الاشارات السـقيمة التى من لون الأسود العنسـى. و ها هو الآن يوصـى واحدا من أحفاده بـأن يحـدب على الأمـة و يعلمهـا القراءات الوسـيعة، لأـن القراءات - وحـدها - تنجيهـا من الجهالاـت و الوثنيات، و المجاعات، و من الموت البطىء، و من الـذل الذى يحنط لروح بالمهانات. لقد سـبق للشـيخ جابر أن لمح أمام الإمام الصـغير عن قصد جده الرسول من احاطـة الأمـة بعلم وسـيع لا بـد منه فى ضـبط مسـيراتها فى خضم الوجود، و هو الـذى سيخلصـها من أسـباب التردى بقدر ما تنهل من موارده فى يقظاتهـا المتعاقبـة. أمـا العلم الوسـيع فليس أبجديـة واحـدة، بـل انه عـدة أبجـديات، سـيكون له أن يبتـدىء بوصـلة حرف بحرف... انه ساعتذ الأبجدية البسـيطة، يعلم كل فرد من أفراد الأمة كتابة اسـمه الذاتى، مقرونا باسم أبيه، و اسم أمه، و اسم القبيلة التى تحسـبه راعيا من رعيان نعاجها، أو فارسا من فرسانها الـذين يذودون عن الحوض. سـتبقى الأبجدية هذه هزيلة جدا، الى أن تعى الأمة أن الفرد فيها هو [صفحه ۱۱۶] أكثر من رقم و أكثر من و شم يدقه شيخ القبيلة على كل زند من زنود أفراده العبدان... و هو أكثر من اسم يتباهى به بطل كعنترة، و فى كفه رمـح طويل السـنان... عنـدما تعى الأمة أنها ليست الا مجموعة أفراد، و أن كل فرد فيها هو طاقة من طاقاتهـا الفاعلاـت، فساعتئـذ يعززهـا الادراك أن مناعتها هى فى كل شؤونها الحياتيـة على الاطلاق، و فى كل طموحاتها الى كل تحقيق و كل رجاء، و لن يكون لها منها منال متكامل الا بتحقيق قيمـة الفرد، و تعزيزه طاقـة مترابطة بكل طاقاتها المتشابكة... فكل فرد فيهـا هو الأمـة ذاتهـا. أليست الأمـة - فى تعريفهـا الكامـل و الشامـل - هى النساج و الحـداد و الصانع؟ و المفكر و الفنان و المبـدع، و الزارع و الحاصد و الفران؟ و حامل المعول و حامل المسـطرة و حامل القلم؟ و السائس و المخطط و المعلم؟ أليست الأمة كلها فصائل فصائل، أو مـدارج مـدارج، فى هرمها المتنامى من بسـطات الأساس حتى النقطـة المتناهية فى عب السـحاب؟ أليس لكل فرد فى الأمة محل فى شدة المسـند، كما لكل حصاة فى بسـطة المدماك فى الهرم المتعالى متكأ من صـلابة يصمد بها خلود البناء؟. من هنا يكون على الأمة الواعية أن تمهد لرفع سوية الفرد و تعزيز طاقاته الفهمية و الادراكية، و لن يكون لها الا التماس العلم يوسع لها آفاق المعرفة بأبجـدياته المنوعـة الفروع، و قراءاته المتعـددة الأـصوات. فـالعلم الـذى تحتـاجه الأمـة ليس هو فى أبجـديته البسـيطة التى تعلمنا قراءة أسـمائنا، و قراءة تباهينـا بمسـلسل الأنسـاب، انمـا هو فى أبجـدياته المتعـددة و المتفرعـة و المتطورة تطورا مـدهشا، مع كل لحظـة من لحظات العمر؛ فالأمـة - فى محض وجودها - هى تسـلسل معارف و مهارات، فى الزراعـة و الصـناعة و كل مجالات الاقتصاد، و الفرد فيها هو الشـبكة المترابطة بكل ما لها من أغراض، و لن تنتهى المهارات، و كذلك سـتتزايد الأغراض، و سيطورها [صفحه ۱۱۷] الفن الى كل جديـد تفرضه الاسـتقصاءات و عزيمـة الاختبارات... من هنا أن العلم الصـغير الذى تحققه الثقافات الفردية سـتتوزع منشوراته على كـل مهنـة من المهن التى يحتاجها مجموع الأمـة فى يمومها الحاضـر و فى يومها الآتى... و لن تكون المهن الا وسـيعة الأرجاء... فالزراعـة - مثلاـ - هى المنوعـة فى الأـرض مع تنوع الفصول و المناخـات، و تنوع الأساليب و المهارات و النشاطات و المختبرات... و

كذلك ستكون الصناعات و التجارات، و كل مهمات تعزيز الاقتصاد، بالاضافة الى الشؤون العظيمة الأخرى التى هى جوهر الأمة و مداها الكبير فى الوجود... إنها قضاياها الفكرية و الروحية و الكشفية عن الحقائق التى تربطها الحياة بوجود الانسان، و لا بد من التدرج الى استيضاحها فى حقيقة الرضوخ لمن هو مصدر الحق و مصدر المثل الكريمة و التقية التى لا ينهض كريما و عزيزا الا بها مطلق مجتمع من مجتمعات الانسان. كل ما ذكر من هذه الأغراض سيكون مجزءا و موزعا منها على مجموعة أفراد الأمة، و سيكون الجزء موازيا لطاقة كل واحد بمفرده، و اذ ما يبرع الفرد بانجازه يصبح كل ثقافته الخاصة... ستجمع الأمة فى سجلاتها الصادقة مجموعة البارعين فى كافة حقولها المتحركة بجميع أفرادها المتخصصين و المثقفين بالعلم الصغير الشامل التنويع - و على مهل أنيق و رتيب - ستمزج الأمة مجهوداتهم المختارة، و تستخرج منها عجينة جديدة تخبزها رغيفا يسمن بها علمها الكبير. غدا... و ليس اليوم... راح الإمام الصغير يتابع تخيلاته و تأملاته و تحليلاته، و يستخرج منها المعانى و الصور... غدا - و ليس اليوم - يكون للأمة تمتع بعلم ينمو صغيرا ثم يكبر رويدا رويدا الى أن يصبح احتراما تزين به سجلاتها التى لا تزال ضائعة فى الردهات العتيقة. لن يكون لها - بين ليلة و ضحاها - اتقان الكتابات، و القراءات، و تنقيح السجلات و تدبيجها بالرسوم... ان ذلك رهن بتخطيط فيه كثير من أضواء [صفحه ۱۱۸] السموات... جدى - وحده - أدرك ما تأخرت الأجيال عن ادراكه فى قديمها الصامت... و سيكون لى، من تنفيذ وصية جدى، بداية يركز عليها الغد آماله المعهودة... أصبحت أدرك ما هو موكول الى كامام مسؤول عن رسالة و عن رعية... و أصبحت أدرك ما معنى تفجير العلم حتى يتسهل فهم الرسالة و تنظيم أمور الأمة التى هى مجموع الرعية... لن يكون لى أن أفجر البحر، بل أن أسهل الوصول الى شطأنه السخية، فأنا طاقة صغيرة من طاقات الأمة، و سأوسع دلوى بقدر ما أوسع عزمى حتى يكون غرفى من العباب أغزر... أما الدلاء فعلى عن أفتش عنها و أوفرها لكل عزوم يناديه ارتفاع الموج ... أليس هكذا يبدأ تحقيق العلم الصغير بتوزيع أليم فى أفواه القرب؟ و هى التى سيحترزها خزان الأمة و يغتنى بها فى اطاره الأكبر؟. اثناهما - العلم الصغير و العلم الكبير - يغذيهما شط واحد، و غرف من بحر واحد، هو بحر العلم الذى هو معرفة منوعة الألوان و الأزباد، ولكنها، فى النتيجة الصامدة، وحدة فى تأليفها ثقافات الأفراد... و هكذا فان الأمة هى مجموعة هذه الثقافات التى تعزز بها ثقافتها الشاملة. و من هنا يحتاج العلم الصغير الى التنوع الذى يبدو و كأنه لا ينتهى... فالزراعة، و الصناعة، و التجارة، و علوم الاقتصاد، و الحساب، و الهندسة، و كل العلوم الأخرى التى يترابط بعضها ببعض و يشتق منها علم الجغرافية، و التاريخ، و التعدين، و التنظيم، و ادارات الحكم، و ضبط السياسة، و معالجة الفكر بالتأليف و البحث و التحقيقات الفلسفية... انها كلها المواد الكثيرة المهمات، تحتاجها كلها الأمة فى تنظيم معاولها، و ترتيب أمورها... و هى التى سيتناولها العلم الصغير فيتثقف بها و تغتنى بمجموعها الأمة فى علمها الكبير. و تابع الإمام الصغير نجاواه: لقد شرح لى جدى بلسان الشيخ جابر، كيف أفتش عن العلوم و موادها فى كل بقعة من البقاع التى تأصلت [صفحه ۱۱۹] بممارستها، و هكذا سأنهج. فالأمة بحاجة ملحة الى علوم الفيزيا و معادلات الكيميا و أرقام الحساب، و الى تفهم التاريخ، و أنواع الجغرافيات، و تحديد المساحات و خطوط الهندسات، و الى اكتشاف المعادن المدفونة فى جوف الأرض، و الى فلسفة و فقه و طب، و كلها توفر للأمة صحة العقل و صحة القلب و صحة الروح، و هى جميعها ثقافات توسع العلم الصغير فى اطارات العلم الكبير. أصبحت الآن أعلم أن الغد الكبير و الوسيع هو الذى يفتح المصاريع على الأبهاء، و هو الذى يصحح الخطوط و يخففها من عقد الأخطاء... فالمعارف كلها هى محاولات يحركها اليقين المستعين بالممارسات المؤمنة يصدق العزم المزروع فى عمق النفس التى هى جوهر اللب فى الانسان، و التى هى سر من أسرار الطويلة . لقد قلت و لقد عنيت: ان الغد هو الذى يأتى و يحقق الأمنيات، لا اليوم الذى خرست نبضاته... سأستعين بالجامعة التى بسط مقاعدها جدى الإمام على فى ردهات المسجد، و قد نقشت حيطانه لجدى الرسول مهجة الأنصار... سأفتح فى كل ردهة نافذة صغيرة أضيئها بمادة علمية ولو هى الآن بنور شمعة تنوس بها الضآلة... ولكن الغد الآتى بالشوق الملح سيضاعف جدلات الفتائل، لتأخذ من أعطيات الضوء ما ينير عتمات يثرب و يبقيها دائما قاعدة منورة... أتراها تصمت ثرثرات الجهل و تترك للجامعة مهلا ينمو بها الغد الطويل الذى ستستنير به الأمة يتوسيع معارفها و مداركها و ممارساتها المشتاقة؟. (۹) صدقا نقول:

لقد عزم الإمام الصغير على تجهيز العمل الكبير و تنفيذ الوصية بكل ما تتستر به من بعد و عمق و الحاح. [صفحه ۱۲۰] لقد أدرك أنه فرد، و أنه طاقة محدودة لا يملك بحر العلم حتى يفجره فى اللحظات المريدة... ولكنه سيبدأ بتسهيل السبل الى ارتياده من شطأنه تاركا للأجيال توسيع مجالاته و تنظيم مجانيه. صحيح أنه اعتبر ذاته طاقة فردية محدودة، ولكن ارادته و بنيته الفكرية، و الروحية، و الشبهية بجده الرسول، أبتا عليه الا و لوجا عميقا يطل به الى كل ما هو موكول اليه... و هكذا فانه لم يعالج فرعا من الفروع العلمية التى راح يفتش عن مدارجها، حتى يوسع بها ردهات الجامعة تحت سقوف المسجد، الا ـ ونال منها رذاذا تجلى فى طلعته - مع الأيام - مهابة ملونة بوقار تماسكت به امامته العليمة، و جعلته اطلالة من فوق منبر، تحلق، حوله أربعة آلاف من الطلاب المريدين العلم الصغير الذى سيصير كبيرا... إذا الأمة عرفت كيف تصنع الكثير من مثل هذه القوارير، و تخزن العطر فيها، فيطيب لها الغد الشهى، أو فنلقل: ذلك الغد الأكبر. على مثل هذا النوع من الاستيعاب المشهى، تضافرت معارف امامنا الصغير، على طول المدة التى مرت عليه فى ظل الإمام الكبير زين‌العابدين، حتى إذا ما استدعاه أبوه لاستلام زمام الامامة - لأن الارادة المرقومة على اللوح العريض هى الملباة بالرضوخ المؤمن - توجه امامنا المشدود بالعزم السديد الى سجادات أبيه المنقوشة بركبتيه المطهرتين، و بسط عليها كل ما جناه من علم و قصد يتم بهما تنفيذ وصية ترتفع بها سوية أمة لم يردها نبيها البصير الا كبيرة و جليلة و هادية. لقد بلغت معارفه - فى كثير من الفروع العلمية التى توسعت بها ردهات المسجد فى يثرب درجة تؤهله لأن يكون موسوعة... و لقد رأيناه - فعلا - مريدا و لجوجا فى التقصى عن كل ما يزيده علما و فهما و اطلاعا، و هو فى حوار لا يتعب مع الشيخ الوقور جابر، يستفهمه عن كل ما تلقنه [صفحه ۱۲۱] من رفقة النبى الكريم و العليم... و لقد نقل اليه الشيخ الغيور كل ملامح جده، و كل مقاصد الرسالة، و كل ما تتبطن به آيات النبوة التى فيها كل حق و كل خير و كل علم و كمال... و شرح له المقاصد و النهوج المقدمة لفلاح الأمة، مع كل ارتباطاتها بتاريخها القديم، و حاضرها الضائع عن حقيقة الفهم، و مستقبلها المحتاج الى علم ينور لها الدروب... و لقد لمح له عن معنى الأمة، و معنى الرسالة، و معنى الامامة، و معنى السياسات الجاهلة التى تغرق الأمة كلها فى المزيد من النكد. و لقد مررنا بفصل سابق فى هذا الكتاب عنوانه: خطوط عريضة - و كان لا ـ بد من الاحاطة بها بعض الاحاطة فى بسطة التعريف عن النبى العظيم و عن مقاصده القريبة و البعيدة فى تقديم الرسالة مكفكفة بفيض من رموز و اشارات تجلى بها كل حرف من حروف آيات الكتاب... و كان لا بد من تعزيز أهمية البحوث بالتطرق الى تحليل و تعليل يقدمها المنطق حول النهوج المرسومة لصيانة رسالة لا بد من ترسيخها فى النفوس حتى تصبح فاعلة... ان النهوج هى التى كانت محللة و معللة، و كانت بمجموعها متفرعة من القصعة الكبرى التى هى الأمة، و التى هى بمعنى الأمومة المحتاجة الى نظام امامى ممتن بالدرس و الفهم و المران المتزن بالرسالة، حتى إذا ما يمر جيلان أو ثلاثة على الأكثر، تجد الأمة ذاتها فى انضباط منتظر، لا تضيع عنه و لا تتعثر. انها ذاتها هذه البحوث التى تفرد بها الفصل المشار اليه فى هذا الكتاب، قد آحرزها باكرا - فى علمه و اطلاعه - امامنا المميز - و بشكل معمق و موسع... و انه لمن الحظ الميمون لهذا الكتاب أنه - بدوره - قد استوحى معانيها من سيرة الإمام بالذات، و هو جالس بين يدى الشيخ الأنصارى، يقرأ فى عينيه حكايا جده الرسول ملفوفة بمطارف الالهام. [صفحه ۱۲۳] الباقر بعد أن سجد الإمام زين‌العابدين آخر سجدة فوق التراب - و غاب - تسلم الإمام الصغير قيادة السفينة. انه بحار أنيق عزيز السارية. وجه السفينة - وحده - فى عرض. العباب ان المسجد فى يثرب - و هو فى العالم الاسلامى كله - أول محراب أصبح أول جامعة علمية باسم أهل البيت، فجر فيها كل طاقاته الموهوبة. امام عباب جلله بمها بات العلم. نبى المسلمين، و بشفتيه الطاهرتين هجأ حروف اسمه: الباقر [صفحه ۱۲۵]

سجادات الإمام

بالحقيقة - لم يصل الإمام الى استلام مسؤولياته الامامية و هو فرد عادى، ان نطاقه أوسع بكثير من ذلك، فهو ممثل أمة و موجه أجيال، و هو بشكل مميز - منتدب للقيام بدور ريادى حصره فى دائرة جليلة لا يتمكن من ملئها الا الموهوبون الطليعيون. باكرا جدا

باشر الإمام بلملمة طاقاته الذاتیة، و سریعا ما أدرک ثقل ما هو منتدب الیه: انه - أولا - امام، بکل ما للامامة من معانی محصورة بها منذ الأساس. ولکن الامامة الآن، بعد أن مر علیها خمسة عهود، ابتداء بجده علی، و وصولا الیه بالتمام، هی بأمس الحاجة الی تدبر جدید، تلمس به حقیقتها المعهودة... صحیح أن جوهر الامامة ما تغیر و لن یتغیر: فهو غایة مرسومة لضبط أمور الأمة فی عب الرسالة التی تضبط - بدورها - کل شؤون الأمة... ولکن أمور الأمة لا یتم ضبطها ما لم تتدخل الامامة بتخلیص عین الأمة من غشاوات الغباء، و تلقینها فن القراءة... - (انه التدبر الجدید الذی حمله الشیخ جابر من فم الرسول الی حفیده الباقر، لیکون اماما مهتما بتعلیم الأمة، حتی تحظی الامامة بخطوطها العریضة). [صفحه ۱۲۶] و انه - ثانیا - ممثل أمة و موجه أجیال... و ممثل الأمة هو ذاته الامتداد من مکفکف الأمة بالرسالة و آیات الکتاب، الی خطوط النخبة الموکول الیها الاصغاء الی تمتمات الحروف و قراءة الاشارات... أما موجه الأجیال، فهو المومأ الیه بسبابة النبی الرائیة، بأن یوضح للأمة خطوطها العریضة، و لیس لها من المیسور - الا العلم یبتدیء صغیرا، و لا یکبر الا ـ بعد أن تلتهب - باحتوائه - خطوات السنین... انه للأمة - کبیرا فاعلا - کلما تقدمت به الأجیال، و استضاءت به المنجزات العریقة. - و هذا أیضا هو خط التدبر الجدید، و علی الامامة أن تحصر کل جهد الی تحقیق العلم و ترکیز قواعده... فلا سیاسة، و لا ادارة، و لا أی نهج یصیب مغانم الأمة، ما لم تتعلم الأمة الأمة قراءات صحیحة تقرأ فیها: عافیتها، و نموها، و کل الحقائق التی ترتفع بها الی سویة انسانیة مرموقة. و حصر الإمام همه بالتجرد لمهمة نشر العلم، باقتناعه التام بأنه وحده الموصول الأمة - رویدا رویدا - الی سبلها المرقومة فی سجل الهدی، و قاموس الحضارة... و ان الویل و الخیبات التی أصابتها فی العهود المنصرمة، ستبقی هی ایاها، و علی ازدیاد، فی ظل سیاسات أمیة و عتیقة، لا تعرف الأمة کیف ترفضها، و لا کیف تجلس من اعوجاجاتها، أکانت أمویة - حربیة - عفانیة رقص بها یزید منها، أم مروانیة - حکمیة - هشامیة ستنتهی بعبد الملک بن مروان، بعد أن حقن شرایین الحجاج الثقفی بدماء مئة و عشرین ألف قتیل... أم ستکون - کما تبدو الاشارات - عباسیة سیهول بفداحتها السفاح و منصور الدوانیقی... و انصب الإمام - بعد أن تسلم مقالید الامامة - علی تحصینها و تزویدها بکل ما یضبطها فی الخط الریادی، تارکا للسیاسیین التقلیدیین خطوطهم البائسة، یتلاعبون بها علی هواهم، - مطمئنین - من دون أن [صفحه ۱۲۷] یکون من الإمام ألا تدخل ناعم و وقور، یرجوهم به أن لا یزینوا أحکامهم الا بالعدل الرسالی. علی مدی ما یقارب أربعة عقود، کانت ردهات المسجد فی یثرب، تصغی - لأول مرة فی تاریخ الجزیرة العربیة - الی علم جدید اسمه علم الجغرافیا، نقب عنه الإمام الذی هو الآن باسم الباقر، لقد وجد له حملة أخذوا جزء منه فی مصر مترجما عن الکتب السریانیة، بواسطة الجغرافیا البطلیموسیة، و وجد أیضا من أخذ فی مصرعن طریق الأقباط علوم الفیزیاء و الفلسفة الاغریقیة، و علم الهیئة، و علم الکیمیاء؛ و لقد وسع أیضا فروع جامعته و مباحثها، مما جعل الوالی عمر بن عبد العزیز یقدر هذه الجهود الکبیرة التی یقوم بها الامام، و یقوم بتوسیع رقعة الجامعة فی المسجد بحیث بلغت أربعین ألف ذراع. الامام وحده کان یقوم بتدریس و شرح لکل العلوم القدیمة و الحدیثة فأدخلها ردهات المسجد، بعد أن تعمق فی قوانینها و مؤدیاتها، و لم یفته. أن یدرس التاریخ، و الهندسة، و الحساب، و الطب و علوم الکیمیاء التی سیطورها ابنه الإمام الصادق و سیقرع أبواب المعادلات فیها، مع تلمیذه العظیم النابغة جابر بن حیان، علی أمل أن یتحقق الطموح و تنجح المحاولة برفع قیمة المعادن الرخیصة الی مصاف الذهب... ان القیمة العلمیة تبقی - وحدها - أعز ما یحصل علیه العلماء فی مجتمع الانسان، و هی الأبهی من لموع الذهب. نعود نقول جازمین: ان السجادات التی ورثها الإمام الباقر عن أبیه الإمام زین‌العابدین، هی التی استمرت تزدان بمعادلات الوقار... انها الآن تعکس مهابات العلم علی الوجه الذی أراده النبی سنیا. ان المسجد الذی توسعت ضلوعه، لم یبق مسجدا - فقط - بل أصبح - أیضا - جامعة علمیة من الطراز الرفیع. [صفحه ۱۲۸]

جامعة فی یثرب

کأنی بالجزیرة العربیة قد ولدت ولادة جدیدة یوم انسحب الطرید الشرید من شعاب مکة تشد به الهجرة الی یثرب. و کأنی بالرجل

الثانی تتفتح أزاهیر روحه و هو ینام فی فراش الهارب فی اللیل حتی یغطی انسلاله فی العتمة التی سینبلج منها نور آخر تستنیر به یثرب و یخلد فیه اسمها کالشمس. عند انبثاق الفجر اکتشف المجرمون المتآمرون علی حیاة النبی أن الطریدة هربت من بین أیدیهم و اندغمت بعتمة اللیل، أما البطل المغطی الانسحاب فهو العلی، و ما شأنهم معه، و علی کتفیه عباءة رثة، مرقوعة بعشر رقع؟. حمل العلی فواطمه الثلاث و امتطی الصبح و لج به المسیر. علی أبواب یثرب تم الالتقاء الکبیر، و اندمج القوم بأهلهم من بنی النجار، و احتک سلک بسلک، کأن للنور سلکین - إذا یتلامسان - ینبلج الضیاء... و هکذا شاء الله أن یحتک نور الوافدین الی یثرب بمعدن الصفاء الهاجع فیها... منذ هذا الحین انغمرت یثرب بالنور و اکتسبت اسم «المدینة المنورة». أسخی ما تنورت به یثرب کان فی التحام حروف الآیات فوق أرضها المطهرة. هکذا انطلق الأنصار منها حاملین نورا و هدایة، فی حقیقة [صفحه ۱۲۹] المؤازرة التی اندفقت تحرر الجزیرة کلها من الکسل الرابض فی قواعد أصنامها المتربعة فی کل زاویة من زوایا کعبتها المتحجرة بالرمز الیابس.. انطلاقا من یثرب تمت حرکة الدورة الحیاتیة - الفکریة - الروحیة التی اغتسلت بها کل الجزیرة العربیة و التی ستغتسل بها أمم فی الأرض، علمتها الرسالة کیف تعلی مئذنة الصلاة و الحمد فوق کل مسجد شبیه بأول مسجد شبعت جدرانه من الصدی المائج من فم الرسول فی یثرب. لقد کان المسجد فی یثرب أول جامعة جمعت الناس، لا لتعلمهم - فقط - کیف یسجدون، و کیف یصلون، بل کیف یأکلون - أیضا - و کیف یشربون، و کیف ینامون، و کیف یسیرون، و کیف یفکرون، و کیف ینهجون... ان فی القرآن و فی آیاته المسموعة، کل علم، و کل حق، و کل خیر، و کل غایة... فلیأخذوا منه ما یستنیرون به، و لیستزیدوا قدر ما یتمکنون و قدر ما یحتاجون... ان فی الرموز المطویة فیه آیات أخری مخبآت، تستحث العقل حتی یغوص خلف ما یتخبأ فی المبهمات. ان تشغیل العقل بکل ما فیه من طاقات فی بنیة الانسان، هو من جملة المقاصد البعیدة المنثورة فی حبکة القرآن. تلک هی حصة یثرب من الطرید الوافد الیها، حاملا معه هدیة لها من ثقلین بنت بهما أول مسجد تنورت به أرضها، و أول مئذنة ترفعت بها سماؤها، و أول جامعة توسعت فیها مدارکها... یا للأساس المدرج علی الأمتین المتلاصقین فی وحدة المنهج. الکتاب - بکل ما فیه من حق و نور و علم - هو الأمتن الأول، أما الأمتن الثانی - و المشتق منه کما یشتق الشعاع من دائرة القرص - فهو طاقة انسانیة معبرة عن حقیقة الجوهر، تطیبت اسلاکها بطبیعة المصدر، فاندمجت به لأنها منه فی واقع الانبعاث. ان أهل البیت هم الثقل الثانی فی التصاق الجذر بنواة صاعدة منه، [صفحه ۱۳۰] واصلة ما اختبأ منها تحت التراب، بما نما منها فوق التراب... لقد کان علی تلک النواة الانسانیة النابتة من هجعة النور فی أسلاک الطویة... ألحت علیه عین النبی، و انسکبت فیه کما ینسکب الفن فی مسطرة المهندسین، لضبط الخطوط فی استقامة السطور الطویلة. علی هو المسطرة المرقمة بالاستقامات السدیدة و الهاجعة بین کل حرف و حرف من الحروف المزروعة فی حقول الکتاب. علی المسطرة هذه یکون الجهد فی ربط المساحات بنوعیة المسافات... أما الحقیقة المتوخاة فهی التی ستجدها الأمة فی غدها الآتی و قد بناها الحق، و العلم، و حقیقة الرشد، و ألمعیة الصواب. ما خبأ النبی علیا مکانه فی الفراش حتی تتم له النجاة، بل حتی تتم للرسالة و الأمة سبل الحیاة. لا لعمری، فان فی القصة الطریفة لبا تتلقط به نباهة الذات: فانغلال علی فی فراش الرسول، معناه اندماج تجسیدی تظهیری لقیمتین جلیلتین وحدتهما حرکة الروح و انطباعات الحفیظة. ألم یقل النبی بعینیه و شفتیه: علی منی و أنا منه، فمن أحبه فقد أحبنی... الهم وال من والاه و عاد من عاداه... انه النهج النابت من عبقریة الفن، لالقاء الرسالة النابعة من جهود الروح و عمق المعاناة، بین یدی قیادی أصیل مقتدر علی تحمل التبعات. لقد وجد النبی الحریص علی کل حرف من حروف کتابه، أن علیا هو الطاقة الأرجح فی کفة المیزان، و علیه - وحده - ترتیب قاعدة الهرم حق تبلغ الأمة غدها الکبیر، و تنال حظوتها فوق الأرض بین عنقود الأمم. علی هو الأساس المطلق، و لن یکون أحد غیره رأس الزاویة، لأنه الفاهم الأول المستجیب، و الممرن الأندر المستطیب، و لن تکون القیادة الفاعلة الا من مثل هذا الجوهر الأصیل... و الا... فان الأمة تنام نومة أهل الکهف حتی یمن علیها الدهر - بعد طول التجارب و زحمة المعاناة - [صفحه ۱۳۱] بطاقة أخری یکون للأمة فیها المثیل. و بقی العلی فی الخط الجانبی - بعد أن أغمض النبی عینه عن الخط الأمامی و خسر نداؤه رجاء التلبیة - و بقیت یثرب فی قاعدة الترکیز، تصغی الی صوت المعین فی صدر الامامة التی

رکزها - قبل أن یغفو - عقل النبی. و بقیت یثرب - أیضا - مدینة منورة، و توسعت بوابة المسجد فیها حتی أضحی المسجد - مع الوقت - جامعة تغص بالطلاب. لقد تولاها الإمام علی فی بعض الفترات الهادئة... و غذاها قلیلا الإمام الحسن عندما انسحب من الکوفة و هو تعب یطلب النقهة... و صمتت بها الأیام مع الإمام الحسین الذی راح ینقش الدرب - بدمه - بین مکة و مخیمات کربلاء... أعار الجامعة هذه - کثیرا من الاهتمام - الإمام زین‌العابدین بعدما حجب حزنه فی قلبه علی أبیه الحسین. ان الإمام الصغیر محمد الباقر، هو المتربع الآن فوق الحصیر، بین یدی أبیه لامام، ینهل الدروس نهلا شهیا... انه الشبیه بجده الرسول، ورنة صوت الصحابی الیثربی جابر بن عبدالله لاتنی تدغدغ مسارب أذنیه بصدی الوصیة الجلیلة. لا شک أن شوق جده الرسول یدعوه لأن یأخذ العلم من هذه الواحة التی یتعهد أفانینها الآن أبوه الإمام الطاهر السجاد، و یفجره بین یدی الأمة المحتاجة الی العلم المفسر و المدخر، و هو الذی ستذوب من فرط بهائه کل العتمات. [صفحه ۱۳۵]

عهد الباقر

دراسة

اشاره

من الاصابة تناول عهد الباقر بنوع من شبه دراسة تتناول الامامة منذ البدایة حتی الوصول الیه:

نظرة عامة

انه خامس عهد من عهود الامامة المشتقة - لغة - من الأم التی هی - بالضبط - الأمة بمعناها الوسیع. لقد سبق لنا فی هذا الکتاب ان تطرقنا الی تلمیحات وافیة عن هذه المواضیع الکبیرة التی استقطبت کل اهتمامات النبی الکریم، مما حداه الی التبکیر فی تنسیق القوالب الصائنة مسیرات الأمة فی خطوطها الصاعدة الی کل تحقیق یضمن لها المستقبل الزاهر. لقد کانت الرسالة أولی البواکیر المستنزلة من سموات الوحی مصبوبة فی بوتقات قوالب، أما الامامة فهی المشتقة من ضلوع الحنین الهاجع فی لب الرسالة، لیکون زفرة منها تعالج به کل لمسة یهددها بها ذیل عقربی. انها الأمة - فی استغراقات النبی و استلهامات الرسالة - لولاها لما انطلی غار حرائها بأضواء فضائها، و لما انسکبت فی حروف الکتاب آیات سمائها. فلتکن الامامة غلاف الرسالة، تصون الأمة فی کل خطوة من خطواتها، و توصلها الی المحجات الأمینة الملیئة بالقسط و العدل، و نلک هی الهدایة تزین مجتمعات الانسان، و تلک هی أهداف الرسالة تملأ الأرض بالنزاهات الجنان. [صفحه ۱۳۶] سیکون الإمام علی أول عنقود فی عریشة الکرمة المرزومة باثنتی عشرة دالیة حالیات القطوف، کل دالیة تأخذ من ربضات الجذور مساقها الی رواق طیب الشمس، و عفیف الظل، حتی إذا ما انقضی - مستتبا - عهد الامامة، من جیل الی جیل، تکون الأمة کلها فی المجالات المرسخة بالمران الموزون بالعلم الوسیع المزین بالایمان، و آیات الشمائل. تلک هی الامامة فی مداها المتنامی، ربط النبی بها أمته رباط الاحتراز، طرفه الأول مشدود بآیات الرسالة واسمه علی، و طرفه الأخیر محرر من زوغات العقد و اسمه المهدی، و هو وصول الأمة المفترض الی تکامل اجتماعی متین الثقافة، لا یبقی محتاجا الی من ینهاه عن ارتکاب المنکر، فمرور اثنی عشر عهدا ممرسا فی الحق، و العلم، و الصدق العفیف، قمین بأن یجعل الأمة المثقفة تعیش المعروف و تجهل ما هو المنکر. أنا لا أحب أن أقول: لقد خیبت الأمة احتراز النبی، و لم تلبه رأسا فی تنفیذ احترازه... فالأمة کلها قد احتضنت نبیها و اعتنقته فی امتصاص الرسالة. لقد رأیناها - جموعا جموعا - تمشی وراءه فی عید الغدیر المعروف بحجة الوداع، و ان لم یکن لها - فی تلک اللحظة - ألا تفهم سلیفی بریء تنادی به بأعلی صوتها: الله أکبر، الله أکبر... أجل، لم تخیب الأمة نبیها المشغوفة به... و خیبته الفئة القلیلة التی لم ترد أن تفلت من یدها مقالید الحکم، و أسالیب ربط القبائل بخیطان الزعامات... فلیکن

لها أن ترى كل اشارات النبى الى عليه المميز، وليكن لها أيضا أن تسمعه يقول: (و ان تولوا عليكم عليا - و لا أراكم فاعلين - تجدوه هاديا مهديا، يأخذ بكم الى الصراط المستقيم) - فانها ستتجاهل، و هى تضمر فى سرها: وليكن للامارة شيخها الصديق و لتكتف - بعلى و باثنى عشريتها - تلك الامامة. [صفحه ۱۳۷] تلك حقائق بينات لا ينى يسردها التاريخ، يتعلق بها المنطق... أما احتراز النبى الباقى للأمة كلها فى حقيقة التسجيل: بأنها لن تدرك شأوا، حتى ولو عاشت عشرات الحقب، ما لم يأخذها العلم الوسيع الى مجالاته الوثيقة، و فى ذلك الحين، فقط - يصل بها الوعى المتكامل الى الصراط المستقيم. لم يصل خط الامامة الى استلام الولاية و لا فى أى وقت من الأوقات المرسومة، حتى يمهد للأمة مجالات الوعى المتنامى بها الى الرقى المنشود... و بقى كل امام مختبئا فى خليته الرمزية، تسانده الرعية مساندة مجزوءة، ضمنت له عند القيمين على الحكم احتراما تفاوتت مقاديره. أما الفئة القليلة فهى بعض المحترفين السياسيين المتزعمين المأخوذين بجمع المغانم، انهم هم ذواتهم فى كراسى السيادة، لا يعلمون الأمة الا التمادى بالخضوع، و التلاشى بالخنوع. لقد اعتصم كل امام من الأئمة الأربعة الذين سبقوا امامنا الباقر، فى خلية مقهورة... لقد كانت عهود الثلاثة الأولين بشكل - خاص - كأنها عهد واحد: عهد استشارات، و محاولات، علهم يتمكنون من رأب الصدع، و تحويل الصراع من جادة الى جادة، من جادة الزعامة القبلية العتيقة، و هى المستميتة فى سبيل الحصول على المغانم، عن طريق الوصول الى كرسى الحكم الذهبى اللون، و الشهى الاغراءات، الى جادة الرسالة القويمة بالحق و الهدايات، و التى هى - وحدها - قد حققت أمة، و هى تستردها رويدا رويدا من غياهب الثرثرات... انه صراع أليم و مميت بين القديم و الجديد، القديم الهائج بعنعناته الزعامية، و جهالاته الأمية، و الجديد الرسالى، بطروحاته الفكرية الروحية، [صفحه ۱۳۸] و قراءاته التى لم يرد أن يفسر حرفا من حروفها ذلك الحاكم المتزعم المعمى بغباوة التقليد... ان الأمة بدورها - و هى التى ترزح تحت وطأة الصراع - لم تتعلم بعد كيف تتركب حروف القراءة ... عندما تلتحم تحت عينيها مسلسلات الحروف، تخرج من شفتيها - كلمة بعد كلمة - جملة تتألف منها قولة الحق فى تحويل الصراع الى الجادة التى يكون - فيها - حق، و خير، و نبل، و صراط مستقيم.

مع الإمام على

لقد حاول الإمام على أن يعلم الأمة - و هى التى لم يفته مطلقا أنها مركز الثقل، و أن لها - وحدها - أن تتحكم بتوجيهات الصراع - بعض قراءات عامة لا بد لأى مجتمع من مجتمعات الانسان من أن يحيط ببعض معانيها و مراميها. و هكذا راح يشرح: ما هو الحق، و العدل، و الخير، و النبل، و كلها - للمجتمع المشتاق - ضلوع الصراط المستقيم. ولكن العلم - فى حقيقة الفهم - هو ممارسات تطبيقية عملية، أكثر مما هو شروحات كلامية - نظرية، و انه لا يؤخذ فى المجتمع الوسيع الا من مجال الى مجال، و تلك هى عين النبى العليم، تربط فهم الرسالة بخط امامى يمتد باثنى عشريته الى ما ينوف عن ثلاثة أجيال، تنال الأمة - من مداها - رسوخا ثقافيا تعيشه الأمة بعد أن يصير دما من دمها، و روحا من روحها، و عصبا من أعصابها القاطعة بها كل الدروب. لم يتمكن الإمام على - و هو ركن الامامة - من تطبيق ما هو أصيل من مبادئه العبقرية، الا تطبيقا قصيرا، ما كاد يلمح، حتى انغرزت فى خاصرته نصلة مسمومة، حقن بها الصراع جولة للباطل، كسرت زجاجة المصباح. [صفحه ۱۳۹]

مع الإمام الحسن

أتراها كانت المحاولة الثانية - يقوم بها الإمام الحسن - أقل من أمثولة لم يتمكن من شرحها، أكثر مما تمكن من تطبيقها أمام عين الأمة و واقعها الذى لم يفهم بعد ما هى القراءة، و لا ما هى روعة التطبيق... لقد حاول الإمام الحسن شرح ما اقتنع به خط الامامة: بأن الأمة التى تشقها الخلافات القبلية، و الزعامات الصنمية، و التهرجات الوثنية... تهدر دمها فى عتمة الجهل، و تعمى عينها بعجاج الغبار، و تفقد وزنها فى كفة التحقيق، بينما الوعى يجمعها الى وحدتها النامية بمعادلات الانتاج. ولكن الإمام لم يتمكن من اسماع شروحاته،

لأن الصراع الذى ولدته الأنانيات الجاهلية، قد حطم - من أمامه - البوق، و شوه المذياع، فعمد الى التطبيق الحى، فتوقف عن القتال الى السلم، و كان بمكنته أن يحرك القبائل، و أن لا يقطع حبل الفتائل... و كانت الأمة - بدورها - غير مؤهلة لقراءة ما كتبه الحسن فى صفحة السلم الذى يحقن دمها من هدره فى فراغ لا ينتج حبا، و لا ينمى زرعا، بل يولد حقدا يتسلح به المتزعمون لبسط سلطانهم على العباد.

مع الإمام الحسين

أما الإمام الثالث... فيا شوق الأجيال الأبية الى دمه الثمين... تتمششه، لتستخرج منه طعم الاباء فى جعب النبل، و نوع الرفض فى حقائب العنفوان... انه الحسين، مشى الحجاز كله بقدميه لحافيتين، و أوصاله المقهورة ... مشى الامامة كلها فوق أرض الجزيرة، مشى اليمن، مشى [صفحه ۱۴۰] يثرب، مشى مكة، مشى غار حراء، مشى خطوط النار فى دائرة الربع الخالى، حيث خاط قمصانه المشوية بلهيب السطوع، مشى الخطوط كلها فى تمدد الصحراء بين مكة تصلى ركوعها بين يدى من خشع الكعبة و رفع قبابها الى مآذن السماء، و بين الكوفة تعطش كربلاؤها، و لا تريد أن تشرب الا إذا جاءها الفرات - من تلقاء ذاته - تخشعا اليها حتى تطيبه مناهل الكوثر... لو سبق للأمة أن تعلمت القراءات فى جامعاتها المفتوحة منذ ثلاثة عهود لكان لها - مع الحسين - أن تفهم ما يشرح لها عن معنى المشى فوق كل الدروب التى مشاها الإمام الحسين - انه يشرح لها أن الدروب كلها فى سبل الحياة، لا يدرك طولها و لا عرضها، و لا و عورتها، الا- المشاة المعانون و طأة المشقات، و انهم هم الذين يمارسونها، و يذللون و عوراتها ، و يؤهلون جوانبها بأظلال مفيئة، و أنفاس تطيبها الرياحين. ان المشاة أنفسهم يحققون الخير، و الحق، و النبل، بعد أن يمشوا الى مواردها، و يتعلموا القراءات، و المقارنات بين ما يحقر الذات الانسانية، و بين ما يعززها بالكرامات، بين ما يحققها مجتمعا قويا - بانتاجه - و ما يفرطها الى ضعف، و مذلة، و هوان... ان العلم - وحده - يكون من حصة المشاة، بفضل الممارسات، و هو الذى علم الحسين رفض الجور و الظلم، و التعسف بمقدرات الأمة، من أجل تعليمها - بنوع من القدوة الرافضة - ان العنفوان هو حقيقة الانسان، فى مجتمع الانسان، فاذا عمت المجتمع معاييره التقية، توارى من تلقاء ذاته الثعلب المرتاغ، و تحلت بلون الشمس عناقيد الكرمة المدلاة على جذوع العرائش... و ما أطيب الحسين شهيدا يجسد القدوات حتى يمرع الجنى، و تثمر المواعيد التى تنتظرها الأمة التى لا تموت منها الأمنيات، و لا الرغبات، و لا الانتظارات، و لا احترازات النبوة. [صفحه ۱۴۱]

مع الإمام زين‌العابدين

أما الإمام على بن الحسين فان الأمة كلها بما امتد منها الى الكوفة و مخيمات كربلاء، لم تعرف كيف تمت صياغة اسمه بمعادلات عجيبة و لطيفة، حولت فيه حزن النفس من غبار كربلائى عجنته الهمجية بلعاب الكواسر، الى دموع حفارة فى عمق اللواعج، فاندفق الألم - من الأغوار السنية - مزاهر مزاهر، توشى الأرض بالصلوات البكر، فان الخشوع الوسيع هو الذى يصفى الانسان من مخالبه، و أظافره، و يدغمه عطرا بسموات. انه زين‌العابدين، ما احتوته يثرب حتى امتصته أدعية يزينها التقى بفهم، و علم، و بعد، فكرى و روحى... انه أدب محبوك كما تحبك السجاجيد التى كانت تنام عليها فى ايران أمه الأميرة شاهزنان قبل أن يتعرف اليها الإمام الحسين، و يقدم لها سجادة أخرى هى سجادة الاسلام. ولكن الهارب من شام يزيد منحورا بكل كراماته، ما التجأ الى خليته اليثربية حتى ينام فى مخبأ... انما جاء يصوغ أدبا على وزن أدب جده فى نهج‌البلاغة، و راح يدور به فى يثرب، يعلم الناس كيف يتخلصون من رجس النفس، و يعشقون الحق موصولا- بسماء. لقد راح ينقل نفسه الى كل يثرب، و يشرحها ورعا، و يطبقها قولا و نهجا. لقد كان الإمام زين‌العابدين مدرسة نقالة، ساعة فى ردهات بيته العتيق، و ساعتين فى بستانه الناهض بالنخيل، و أكثر من عشر ساعات فى المسجد، و فى رفقته فى أغلب الأحيان - فتى تنام فى عينيه دموع حمر، ولكن شيئا آخر، تحت جعادة شعره الأشعث، ما كان يريد أن

یسفکها الا إذا نقعت غلیلا، أوشفت علیلا... فعلا - لقد قصد الإمام زین‌العابدین تعلیم کل یثرب الصلاة [صفحه ۱۴۲] الرائعة، و بنوع خاص، فن الصلاة فی مقاصدها البیعدة... ولکن الواقع - أیضا - فلیوصف: فیثرب بالذات - و هی بین یدیه - لم یتمرس بالقراءة فیها الا قلیل قلیل من مثل جابرالأنصاری، أما الأغلبیة کلها فسجایا جمیلة تعشش فیها البراءات، و هی تلمس حیطان المسجد - للتبرک - من دون أن تعرف کیف تکتب اسمه، أو تدرک کنهه. أربعة هم الموصولون حتی الآن بخط الامامة المحجوزة، انهم احتراز النبی العظیم فی بناء الأمة و استمراریة نشوئها من ساعة الصفر الی الساعة المنتظرة، ولکن الأربعة جمیعهم و ان کانوا من صفوة النخبة فان الأمة لم تعرفهم الا بأسمائهم المسموعة، لا برموزهم المقروءة، لأن مدرسة واحدة لم تشأ فی یثرب، و لا فی غیر یثرب، اللهم الا المسجد الذی سیوسعه الباقر... لقد بناه الیثربیون ببراءاتهم المعهودة، و نعمت البراءات لو تم لها التعهد المرسوم... ولکن التعهد لم یحصل، لأن القراءة لم تحصل. ثم أی واحد من الأربعة المنخوبین لادارة الأمة، و تعهدها علی المجال الطویل لم یحجز فی خلیة ملغیة و منسیة، ثم تمکنوا من شطبه بلعقة سم. لقد کانت المعرکة الکربلائیة عاشوراء الحسین، و بدلا من أن یخطفه السم، خطفته الهمجیة...

عقدة الحکم

هل هی بسیطة عقدة الحکم فی أمة لم تتعلم - بعد القراءة؟ انه هذیان الأمة فی واقعها ذاک، یسیر بها من محطة الی محطة، تتألف منها - بالنتیجة - مجموعات الکوارث... لقد ابتهجت الأمة بأن الله - بعد لأی عسیر - قد من علیها بالکتاب، و عندما قدم لها - من خط بیده آیات الکتاب - لائحة باثنی عشر نقیبا [صفحه ۱۴۳] یعلمونها قراءة الحروف و تخلیصها من المبهمات، قال له من یحسبون أنفسهم الأولیاء: - قدک قسطا فی کتاب... فنحن لها - قراءات الحروف - و فک الرموز، و حل المعمیات... انهم لها أولئک الزعماء الأمیون، لا یترکون بقعة، حتی فی الدهناء - الا و یزرعون فیها مدرسة تعلم القراءة، و جامعة توضح القراءات، و کلیة تخطط لتنشیط الزراعات و الصناعات، و الاختراعات، و ربط الأمة بأفرادها الأولیاء... لماذا لم یدرک الزعماء أن الأمة وحدة اجتماعیة نامیة بمجهودها الانسانی، و أن الصدق و الحق، و العدل، و تحقیق الانتاج، هی معاولها فی السمو المنشود؛ و أن الثقافات - وحدها - هی فی حقیقة التحضیر!! ألم یدع الزعماء هؤلاء، بأن لهم اتقان القراءات؟ فلماذا لم یقرأ - أی واحد منهم - هذه الحقائق منشورة فی کل صفحة، لا بل فی کل آیة من آیات الکتاب؟. ثم - لماذا أخذوا الکتاب؟ و لا یبدو أنهم فتحوه... بل فتحوه و ما قرأوه... أیکون ذلک منهم حتی یقال فیهم: انهم الملهمون، لأن کتابا عظیما یحملون؟. أظنها خلف ظهورهم هذه الزریعة... و الا لما حطموا أنیات المائدة، و قد قدمها لهم الرسول فی اثنی عشر مسندا تثری بها فخامة الدار... وحده جاء الحکم فی سیاسات القبائل، یستدر لعاب الزعماء فی زعاماتهم لجاهلیة، و لن یعرفوا کیف یثقفون الأمة، لأنهم غیر مثقفین!!! أما الأمة، فمهما یکن قسطها من درجات الثقافة، تبق بحاجة ملحة الی [صفحه ۱۴۴] حاکم مثقف و صادق، یدیر شؤونها فی کل المعارج: قسط، و عدل الی صراط مستقیم. أما الثقافة فهی أبدا مطلب أساسی، یشمل الأمة من خلال ثقافة الفرد، فتتوزع المواهب، و تتهذب مزایا، و تتوسع المعارف. لم یکن فی العصیان الا هذیان و روغان... و لو أن الاذعان قدتم کما رسمه الذهن الصافی، و وشته البصیرة الرائیة، لکان للأمة نمو، و هدایات، و أضواء، و أبجدیات، و کثیر واضح من القراءات.

و الباقر

لقد جاء دوره فی استطلاع الوتائر و تدبیر المصائر، و تحویل اللیل من غسق تموت فیه الأحلام الی اشارة من ضوء یعقبها فجر جدید، و معالجات جدیدة، تتغیر بها الأوضاع الراهنة و التی هی استمرار الرواسب، و قتل المواهب، و نشر الذعر فی الأبدان و الأرواح... - ألا أن الأمة تستدعینی یا جدی الرسول، فأنت المزروع فی طوایانا کما هو الفجر مزروع فی أسارید الظلمات، و لن یکون للفجر الا تلویح بالظهور - کما لن یکون لایحاءاتک فی ضمائرنا الا تفسیر ملبی... لقد سمیتنی - بلسان جابر - باسم الباقر - سأکون الباقر المفجر

العلم یا جدی، سأکون بین یدیک: - نجی الرسول - [صفحه ۱۴۵]

نجی الرسول

اشاره

انها فرص سعیدة تلک التی توافرت لإمامنا الصغیر یربو فی حضن أبیه زین‌العابدین، و هاتف یقرع أذنیه کأنه ناقوس من ذهب الجنة، یحرک أوتار روحه، و عزائم لبه، و هو یردد فی خلده: - العلم العلم یا حفید جدک الرسول خذه الی صنجک، و فجره - یا نجی الفجر - علی الأمة تفجیرا. فالأمة و الامامة صنوان فی المعنی الکبیر: طحین راکد ما لم یلتهب بأشواق الخمیر. إنها فرصة سنحت - لا شک - سربلته بالباقر... و قد تکون أیضا بنت معاناة لا تزال حوملة فی وجدانه، منذ کان عمره أربع سنین عندما ثقب - بسبابة کفه - بلاس المخیم فی کربلاء، و شاهد بعینه المقروحة جده الحسین یعجن الرمل بدمه المفجور!!. و تعززت الفرصة و اندمجت بایمانه عندما تم له احتکاک خاشع باهر، بشیخه الهاجع فی ضمیره کما یهجع الفجر خلف القمم الکبیرة... ان الشیخ جابر بن عبدالله الأنصاری، و هو شمعة هادئة النور، لملمت فتیلتها من رفقة النبی و هو یغزل للجزیرة قمصانا جدیدة. لقد اقتنع الإمام و هو برفقة الشیخ جابر، بأن العلم طاقات غزیرة، لا یمکن أن یستوعبه الفرد الا لماما، و هو الی نمو، و تطور، و اتساع، عن [صفحه ۱۴۶] طریق الاختزان، و التمرس، و المران: فالحاضر یتسع بقرعات الأمس، و کذلک الغد بما احتواه الیوم، ولکنه - ما لم یرتفع موجا - ینطفیء زبدا، و تیبس دونه سجدة الشطآن. و لشد ما أدرک أن أمته، و هی أمة أبیه و أجداده الی أجیال عدیدة قبل جده الرسول، هی التی تعانی هبوطا فاضحا فی حرارات العلم، و لیس لها الا تقالید قبلیة بالیة، یستصرخها الزعماء التقلیدیون الی عنجهیات رثة تثبتهم فی دسوت الحکم، و أبواق السیاسة... أما الرسالة - و هی الأطروحة الثمینة التی هبطت لتنقذ، و تبدل، و تطور - فانها، و ان قبلت: آیة، و تسلیما، و دینا، قد جمدت فی قوالبها، و استدعیت الی السیر فی رکاب القافلة التی هی: شیخ، و زعیم، و قبیلة... لا نبوة، و رسالة، و امامة... أما النبوة، فان السماء قد وهجتها، فلیترک لها وهج السماء - أما التوصیة بأهل البیت، فلهم یعود قبولها أو رفضها، و لن یکون ذلک قبل أن یغمض الرسول عن الأرض جفنا، و وقتذاک فلا شیء یضیره... أما الامامة، فما عساها تکون عین الاحتیاط فی احتکارها الی مدی الترسیخ، و جعلها فی عب علی سنادا و ثیرا؟ ألیس التجاهل أغنم منها؟. سبب واحد لا أکثر وجده الإمام الباقر خلف عصیان القوم نبیهم، و خلف تمادیهم فی أسالیب الجفاء أو فلنقل: فی أفانین العداء... لقد قسموا الأمة کلها الی خطین متنافسین علی امتلاک الأرض و امتلاک الهواء. فالأرض و السماء هما لبنی حرب، و لیستا لبنی أبی العلاء... فلینقرض بنو طالب و ینتهی العناء... أما السبب الواحد الذی أحاط الأمة کلها بهذا البلاء، فهو فی غیبة العلم عن الساحة العامة، و فی جهل القراءات التی هی سیاسات فهیمة و حکیمة و تقیة، تعرف الحرف، و الرقم، و ضبط الحساب، و تعرف الفیزیا، [صفحه ۱۴۷] و الکیمیا، و الهندسة، و کل المعادلات، و تعرف الزراعات، و الصناعات، و التجارات، و ما هی الأرباح، و ما هی الخسارات، و ما هی البحور، و ما هی الشطآن، و ما هی الأفلاک، و ما هی الأرض، و ما هی السموات، و ما هی الأمم، و من هو الانسان، و ما هی العلوم، و ما هی الثقافات... العلم وحده یکون فی حقیقة المعرفة، و حقیقة التحلیل، و التعلیل، و المقارانات: بین ما هو حق یبنی المجتمع، و ما هو شر یفتته - و عندئذ تدرک الأمة أن النبی جاءها من علاء لیبنیها أمة راشدة و هادیة، و أن العلم المرسخ فی لبدة الأجیال هو الذی ینیرها و ینمیها فی رحاب الرشد، و فی أحضان الهدایة. و انما المجتمع ترسیخ، و نمو، و ظل ثقافات. ألیست هکذا نظرة النبی الی ترکیز الأمة فی حضن الرسالة و احاطتها بزنار الامامة. إنها بدهیات و حتمیات، أحاط بها الإمام بعد أن کشفت له أن الطالبیین و علی رأسهم الإمام علی، خسروا جولاتهم الامامیة التی رسمها الرسول، و ذاقوا الموت و التنکیل، و لن یکون تشبث الخط - من بعدهم - برسالة الامامیة، الا ملاقیا ما هو بانتظاره من أنواع التعذیب و التنکیل... أما أن تعرف الأمة أنهم من أجلها یعانون و یبذلون الروح و لا یبالون... فتلک أطروحة

انموذجية قام بتسجيلها جده الحسين، و هى بانتظار من يشرحها حقا، و يظهرها انتصارا لقضية الأمة المفتشة عن الاباء: يرفض الذل، و يعشق العدل، و يثبت القسط بين الناس، و يقدس الحريات... و تلك نغمات ثرية، لن يحفرها فى التسجيل الا التثقف الذى رسم الوصول اليه جده الرسول فى تنسيقه خط الامامة. كل ذلك ألم به الإمام و هو فى استقراءاته مع الشيخ جابر، و مع أبيه الإمام الساجد، و مع نفسه الغارقة فى بحور التأمل... لقد دله الغوص الى كل ماهية من الماهيات، وسع بها معارفه تحضيرا لاستلام المهمات. فالامامة التى فرضها جده الرسول، انما هى - بحد ذاتها - علم، و اطلاع، و احاطة، و فوق ذلك فانها واصلة اليه الآن بلون جديد فيه الكثير من [صفحه ۱۴۸] الاستحثاث على نشر العلم، و تكثيف الجهود، تعويضا عما يناهز قرنا من السنين، خسرت به الأمة جولة تحضيرية كان على أئمة أربعة أن يرفعوا بها ثقافاتها الى سوية مرموقة توضح بها خطوط الصواب. لقد فهم الإمام أن التعويض على الأمة لا بد منه فهى أبدا فى الانتظار. و أدرك أيضا أن ثمانية من الأئمة لا يزالون فى حقول الانتظار. سيكون لهم ثمانية عهود طويلة سيملأونها بالجهود النفيسة على مدى قد يمتد الى ثلاثة أجيال، و ربما - إذا طاب الجو - الى أربعة، و هى مسافة كافية لترسيخ العلوم و حفر الثقافات التى توصل الأمة الى الصواب المرتجى - و الهدى المنتظر. و هكذا راح أيضا يحسب الامام: لقد رشحنى جدى الرسول - و أنا لمحة من وحيه - لأن أبقر العلم و أنيله الأمة حتى تستنير به و تجمعه لها رصيد هداية... و هل يكون لى ألا أفعل؟ فأنا رأس ثمانية تنتظرهم الأمة فى سلسلة الوعد. فان لم نهرع - منذ الآن - الى تلبية ذكية، فاننا جميعنا المهدورن... و بالتالى... فان الأمة هى المهدورة. الى أن يتم لها و لنا هذا الرهان. [صفحه ۱۴۹]

الرهان

اشاره

لم يتم وضوح لأى تصميم من التصاميم التى كان يعتزم على اتخاذها أى امام من الأئمة السابقين، كما تم للتصميم الذى اعتمده امامنا الباقر - ان الواقع الراهن، بظروفه و عوامله الراهنة، قد ألم بها و احتواها بذكاء و فير، و هى التى وضحت له الخط، و سددت له العزم، و قومت له الدرب لا تمام الوصول. فلنشر قليلا و باقتضاب الى هذا الواقع الراهن، فى عوامله الراهنة: من حيث هى محرضات تمكن من درسها، و استيعابها، و استدراجها للوصول الى هدف جليل.

واقع الرسالة

عشر سنوات كانت كافية لاقتبال الرسالة دينا شمل الجزيرة كلها و مسحها بمساحة الاسلام. و فى عيد الغدير الذى تمت فيه حجة الوداع، كانت الأمة كلها بين يدى الرسول تسجد خاضعة و هى تنادى: الله أكبر، الله أكبر، لبيك لبيك يا نبى المسلمين... و عندما أغمض نبى المسلمين عينيه فى مدينة يثرب صمتت شفاه التلبية ضمن جدران السقيفة... لماذا؟.

واقع الأمة

إنها ذاتها الأمة التى أنجبت نبيها و تقبلت رسالته دينا... انها عظيمة [صفحه ۱۵۰] فى سليقتها البريئة، و لو لم تكن بريئة و عظيمة لما أنجبت نبيا. لأن لها من الشوق ما أكسبها قرآنا... و لأن لها من المغنم ما خشعها اسلاما... ولكن... ما بالها - بعد ست و ثمانين سنة من هجرة الرسول، يدخل المصلون المسجد فى الشام و يصلون القرآن بين يدى من يدعى أنه خليفة النبى و هو يصلى القرآن صلاة مقلوبة: إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب خرقنى الوليد... لماذا لم ترفض الأمة المصلية رجلا يمثلها و هو يرفض دينها؟.

واقع الامامة

و الامامة؟ و هى ترتيب و تخطيط لعدة أجيال قادمة بعودها المرتقبة و المركزة على نمو ذهنى - فكرى روحى، تحققه العلوم و الثقافات، بالتدرجات الحضارية، يتعهدها أئمة منتدبون، و مدربون برسالة النبى الذى هو روح الأمة، و شوقها الهاجع فيها منذ مئات الحقب، و هو الذى التمع فيه الوحى، و انبجست من بين شفتيه حروف الرسالة - و لم يفصلها - بتاتا عن توضيب الامامة توضيبا تعهديا لضبط شؤون الأمة القاصرة و الوارثة كل مهانات الأمس، و الغائبة بين طيات جاهلية؟. لقد رتب النبى الكريم جدارا من وقاية و درايه، و حصنه بركن متين و حريز و لم يكن له اسم غير على، و منذ زمن طويل و هو يشدد اليه الوصاية، و يوجه اليه أصبع الاشارة... أما الزعماء و النقباء البارزون، فانهم أهملوا الوصاية، و تجاهلوا الاشارة، و موهوا على الأمة كلها بأنهم هم أركان الأمس، و أركان الغد، و أركان الادارة... و لم يحصل الاذعان، و حصل العصيان، فلماذا؟. [صفحه ۱۵۱]

واقع السياسة

ان السياسة فن يتناول الأمة فى جميع شؤونها المادية و الروحية على السواء، ليكون لها انضباط، و نمو، و تطور... ولكن الجزيرة لم تتقن هذا الفن، و بقيت كل معالجاتها السياسية قبلية بدائية، لا تعرف كيف تهتم بقضية الفرد و انمائه اجتماعيا، حتى جاءتها الرسالة تبشرها بالحق، و العدل، و المساواة، و اعتبار الفرد قيمة انسانية - اجتماعية، لا يتميز عن غيره الا بنسبة ما تطيبه التقوى. هكذا انضبطت السياسة، و توحدت الأحكام، و اتخذت توجيهها الاجتماعى العادل، تحت ريادة من سن لها كل الشرائع، و تعهدها بكل المقومات النابعة من حاجات الأمة و مصالحها بالذات. و لم ينس هذا المشترع العظيم أن يشمل الغد باهتمامات بعيدة النظر، تجعله مستمرا فى التحقيق المتصاعد بالأمة الى كل حيز حضارى مرموق. لقد انضبط الغد بخط من حكم موجه، يضمن استقرار الأمة و استمراريتها فى النشوء المنضبط على الصراط المستقيم، و لقد ثبت الامامة على ركن كعلى، و كانت الوجبة المثالية التى سيتلقفها الغد، و يبذلها على الأمة صوابا و هداية. ان كل ما كان مبنيا على جهد النبى، و مرويا بعرق النبى، و مرئيا ببعد نظر النبى، تناولته سقيفة بنى ساعدة و مرغته بالهذيان، و رمته فى زواريب يثرب، كأنه خيال حلم به النبى و هو يغفو تحت سقف آخر، تجمع فيه كل أهل البيت. لقد حصل كل هذا... فلماذا؟. [صفحه ۱۵۲]

واقع أهل البيت

انه الواقع الجليل - جللتهم به الرفقة الحميمة، و القرابة الملتهبة باللواعج المطهرة بالحب، و الصدق، و الحدب الكبير... يا للروابط المتينة، تجمعها الأرض فى قوالب الطين، و تسكب فيها السماء أثيرا من ملكوت، فاذا الوجود كله انسان يحلم بالنعمى التى تطير به الى جنان. و أهل البيت - بيت النبى - هم الذين ظللهم - و النبى - سقف واحد، ما اندمجت جذوعه الا بشوق واحد مضمخ بطهر أطيب من فتيت المسك - انهم أربعة جمعهم النبى فى حوضه، و محضهم حبا يعيشون به و لا يموتون. لقد دل اليهم بأنهم المطهرون من كل رجس، و أن الأمة كلها بمثل هذا الطهر فلتبن بيوتها، و اعمارها، و أجيالها... و ان لم تفعل فالرجس يعميها. و اغمض النبى عينيه تاركا أهل بيته - من بعده - وعدا للأمة، و ذكرا، و ذخرا... ولكن السقيفة التى راحت تسهر ليلا حزينا على غياب النبى، صاغت قرارها قبل أن تغيب نجمة الصبح: - لن نسمح لأحد من أهل البيت بالوصول الى كرسى زعامة: لن يتشهى طالبى كرسى زعامة قبل أن نسقيه نقطة سم: أما الخلافة فهى لنا ... حتى ولو كنا رجسين... أما الامامة - حتى ولو كانوا مطهرين - فلتبق لهم مقهورين: فليكتفوا بالامامة... على أن يبقوا صامتين: انه تهديد صاغته و نفذته السقيفة... أما الأمة فقد ألهيت بالقبلية... أما الامامة فلم ينجها - لا القهر و لا الصمت - و بقى السم يندس فى ماء شرابها... و بعد مئة سنة لا نزال نسأل: لماذا هذا الواقع الراهن لا يتبدل و لا يتغير؟. [صفحه ۱۵۳] من هذا الاستعراض الذى تم الجواب عليه مشروحا شرحا كافيا فى متن هذا الكتاب، بنى امامنا الباقر تصميمه الحازم و هو يقول:

- أية قيمة للرسالة، أبو بالأحرى، للإمامة؟ و اثنتاهما فى عملية واحدة فى التساند، و التكامل، من أجل الوصول الى الأمة و رفع مستواها المادى و الروحى على السواء؟. أى شىء هى الرسالة، ان لم تكن هى ذاتها الأمة، و قد خلعت قميصها البالى و استبدلته بالجديد النظيف؟. أن يحاول الهرمون استبقاءها فى رثاثتها المعهودة فتلك - لعمرى - رثاثة أخرى يأباها منطق الحياة و جوهرها النامى بحقيقة الانسان. ان الأمة - فى نظرة الرسالة - هى الخلية الكبرى لكل مجتمع من مجتمعات الانسان، و هى البوتقة الصالحة فى مداها الموسع بالتفاعلات الانسانية النابضة بحقائق الوجود، لانماء المواهب، و المدارك، و الحقائق، و كلها هبات عقلية - ذهنية - روحية، تلون حضارات الانسان، و تزينها بصفات خلقية مبرورة، تخشع المجتمع كله فى حضرة اله الخلق، و تجعله مبدعا فى كل ما ينتج، و عفيفا فى كل ما يشتاق اليه، و مؤمنا بكل ما هو حق، و عدل، و صفاء... الأمة الأمة، تقول الرسالة بكل ما فيها من حق وحدب، و رجاء... علموها - ثقفوها - وسعوها بالفهم - حتى تكون لكم حصنا و مجنا... و الا فانها قطعة رثة من قميص عتيق، تهلهلها ريح جاهلية، و تشويها هبات السموم... أى شىء نترجى من الواقع الراهن - يتابع هجسه الإمام الباقر - طالما أن الامامة لم تتمكن من سد الثغرات المميتة، و طالما لا يزال القميص [صفحه ۱۵۴] الرث على عرى الأمة، تزيد من رثاثته فئة التقليديين المستنقعين فى بؤرة جاهلية... ستبقى الرسالة هكذا محجوزة ضمن الغلاف. و ستستمر الأمة هاجعة أسيرة عريها فى زوايا الكهوف. أما القبائل المشرورة كلها من مكة الى سائر الحرات و الأحقاف، فليس لها الا أن تتابع اجترار السلاسل فى أقدامها المطلية بالرماد... تبقى الامامة - و قميصها عفاف طالبى - و ازارها رسالة نبوية، و مطلبها شوق علوى - بانتظار أن تنتصر لها الأمة و تنجيها من التهديد المبيد... ولكن الأمة لن تأتى الى النصرة المرجوة... و أولا و اخرا هى المرجوة - ما لم تستعن الامامة المعزولة إلى زوايا الصمت، بعزم وحيد لا مناص من اعتماده، و هو تزويد الأمة بعلم، وسيع، مجرد، يثقفها رويدا رويدا، و هو الذى سيرسخها فى ادراك ما ينجيها من العبوديات، و هو الذى سينميها انسانا واعيا: ما هو الحق فيهيم به، و ما هو الخير فيشتد اليه، و ما هو الصواب فيعانقه ارتياضا، و ما هو الشر فيرفضه امتعاضا... على كل ذلك كان رهان الامام، و ما علينا الا أن نراه نهاجا كبيرا ينشر علما، و يوسع جامعة. [صفحه ۱۵۵]

النهج

لم يكن نهج الإمام الا مركزا تركيزا متينا على اقتناعه الصامد بأن العلم - وحده - هو الذى يسير بالأمة الى مراتب التقدم و الفلاح. و كان الإمام يعرف تمام المعرفة، أن العلم لن يقوم بهذه المعجزات الا عندما يستحيل - فى المجتمع - ثقافة حية، و يقينا فاعلا، و بحبوحة من حق، و خير، و معروف، انه - ساعتئذ - تلك الطاقة العقلية - الذهنية - النفسية - الروحية التى حلم جده الرسول بايصال أمته إلى اغتمار بها، لتكون أمة هادية لكل أمم الأرض. سيكون نهج الإمام محصورا فى مواردها و مصادرها، و هكذا سيكون التجرد للعلم من دون أن يهتم بأى غرض سواه، اقتناعا منه، بأن لكل غرض من أغراض الحياة اختصاصا معينا يقوم به حتى يوفيه حقه من الاتقان، و اقتناعا منه - أيضا - بأن مطلق غرض من الأغراض، لن يصيبه حظ سعيد إلا إذا نقحه العلم، و زينه بالفهم الصحيح. سيكون للعلم أن يفهمنا: لماذا نأكل، و لماذا نشرب، و لماذا نمشى فوق الدروب - و ان يعلمنا كيف نزرع، و كيف نجنى مواسمنا، و متى علينا أن نخزنها فى اهراءات - و هو الذى يعلمنا كيف نصنع الاهراءات - أما الكراسى التى يجلس فوق متونها الحاكمون، فالعلم ذاته هو الذى يرشدهم الى تنجيدها بزهر البيلسان، و أن لا يسقيها الا عصير الحق، و العدل، و ذوب التقى، و زلال من كوثر الجنان. [صفحه ۱۵۶] سيشرح العلم للأمة و للحاكمين: أن الضمير فى الانسان و على الأخص فى طوايا الحاكمين، هو العنصر الكمين فيه، و هو النجى النجى، لا ينعشه و يحييه، و يبهيه الا الحق المعصور فى لب الانسان، و التقى المسكوب فى عبه، و الزلال المصفى فى رقعة الوجدان. هكذا هو النهج فى أنماط الامام، تزين به صريحا أمام الأمة حتى تشاهده - يوما بعد يوم - يقدم لها ما يثقفها فتنجلى به: عقلا، و حسا، و عينا، و أذنا... و اختال به نزيها - تحت عين الحاكم المتولى، حتى يراه رابضا فوق منبر جامعى، يعالج العلوم كلها، و يوضحها بالشرح، و بحقيقة التجرد، فيرتاح باله بأن السياسة باقية له - وحده - لا يشاركه بها، لا المزاحم، و لا المتجنى، بل المتمنى على الريح

السماوية أن تنسل، مع خطوات الدهر - نسمة نسمة - الى الأذهان، فتزهو العقول، و تسلم الأبدان، و تستقيم الأمة على ميزان يرجحها: ثقافة، و نظارة، و نقاء وجدان. من هنا يكون ابتعاد الإمام عن حقول السياسة، و عن الالتجاء الى محاولات معددة الأشكال، و منوعة الأحجام، للوصول الى ملاقطها، دليلا قاطعا على مجافاتها و قلة احترامها، باعتبارها - مع المتلقطين بها - غير صالحة لادارة أمة واعية و مستوعبة كل مصالحها... فالحكم فن من الفنون العالية، ركيزته الحب، و الفهم، و الحدب على الأمة من خلال الاطلاع، و الاختصاص، و الممارسات الحكيمة، هذا ما لم يتصف به مطلق زعيم ادعى أنه خليفة نبى المسلمين. أما الاطلاع، و الاختصاص، فهما الطاقتان الهزيلاتان فى دوائر الأمة، هزالا بائسا، و لن يجعلهما حلقتين متينتين فى سلسلة الحكم القابض على مقدرات أمة، الا العلم الموزع المعرفة على المطلعين، [صفحه ۱۵۷] و المتخصصين، و المتمرسين فى معالجات القضايا المتعلقة بصميم المجتمع الانسانى العظيم. هكذا يتضح نهج الإمام و هو يقرر جازما: إذا كان العلم الوسيع هو المقرر بناء الأمة، عبر بناء كل فرد من أفرادها الذين هم خيطانها، و حبالها، و أوتادها... و عبر بناء كل حاكم من حكامها الذين هم المدبرون، و السائسون، و الموجهون المستنيرون و الصادقون... أليس من الضرورة الماسة و القاطعة، أن يتجرد لخدمة العلم، و تركيزه، و توسيعه، و الإلمام به: أولياء متخصصون، ينقطعون اليه، و يتنسكون فى محرابه، و يفتحون له الأبواب، و كل الأشرعة، لأنه الطاقة العظيمة و الوحيدة التى تطوق العقل بأسلاك النور، و ترفعه الى مهابات سماوية؟. أليست الأمة العظيمة، فى مجتمعها الانسانى العظيم، هى الدائرة العظيمة التى لا يبنى لها الأبراج العالية الا العلم الرفيع؟. انه تقرير النهج: بأن الإمام الباقر هو المتخلى عن كل شىء من متاع الدنيا، و هو المنضوى الى مسجد جده الرسول، و هو الموسع مدارجه السنية فى يثرب، و هو الذى جعلها مدارج جامعة. [صفحه ۱۵۸]

الجامعة

منذ أن بنى المسجد فى يثرب و هو جامعة لأهل البت، يفتحون أبوابه لجميع المصلين بين يدى نبيهم الرسول، و مثلما كان جامعة للصلاة، كان أيضا زوايا وردهات لأخذ الدروس، و الشروحات و الأحاديث، و الاستفسارات، أكان ذلك على عهد الرسول أم فيما بعد مع الإمام على، و الإمام الحسن، و الإمام الحسين. لقد كان المسجد فى المبتدأ مقاما للصلاة، ثم خليطا من عدة أجنحة: للدروس البسيطة، أو للتبسطات الفلسفية، أو للاستفسارات الفقهية، أو للتداول فى الشؤون الفكرية و السياسية، الى ما هنالك من مستلزمات حياتية - تربوية بدأ اليثربيون يشعرون أنهم بحاجة اليها. ولكن الأئمة الثلاثة الأولين ما توفرت لهم الهنيهات المستقرة حتى يركزوا ردهات المسجد على الخطط الموزونة و المرسومة، فكثيرا ما ألهى الإمام على عن سكب طاقاته العلمية و الفكرية و النهجية فى صدور طلابه المريدين الذين كانوا ينتظرونه فى ردهات المسجد. يكفيه من اهدار طاقاته الفكرية و الروحية و الجسدية، و حجبها عن زوايا المسجد: يوم الجمل و أيام النهروان. أو السفسطات و المماحكات التى حبلت بها مومياء صفين... ألا يكفيه ابعاد عن خطوطه الامامية البعيدة الرؤية الى مسافات الغد انسحابه الى الكوفة لاستجماع قواه المبعثرة بين يثرب يخنقها زفير [صفحه ۱۵۹] الصمت، و مكة يعود اليها لهاث من صدر هبل... و هكذا، رويدا رويدا، طاله ابن‌ملجم بظبة مسمومة... و كذلك جاء القاصدون تمويه الخطوط فلفلفوا الإمام الحسن بخيانة قائد جيشه عبيدالله بن العباس، فعكف الإمام على الصمت، و لم يلجأ الى عسكرة القبائل صونا لمقدرات الأمة من الانهيار بهدر الدم، و رجع الى يثرب يفتح فى مسجدها غرفة يدرس فيها فلسفته المقهورة... و قبل أن يلمع فى الغرفة تلك نقش جامعى، تسربت الى كوبه نقطة سم يبسته على فراشه فى زاوية البيت... الحسين وحده ما أراد أن يدخل المسجد الا دخول الفاتحين، و هكذا لم يطق أن يقدم دروسه ضمن غرف لها جدران، بل فى العراء العريض راح يلقيها حتى يتلقفها الوسيعان: المكان و الزمان، و حتى يكون الرفض الذى هو العنفوان، مادة اكسيرية تتلقح بها كل الفروع العلمية، بما فيها الكيميا أم المعادلات، و لب السر فى جميع التحويلات، و التطويرات، و التخميرات. لقد كان لاستشهاد الحسين فعله التخميرى فى نفس الإمام على بن الحسين: تناوله حزنا عنيفا، راح يفيض على كل شعاب روحه ، ثم تحول - بقوة ذلك الاكسير - الى مدى آخر من صلوات بكر يزدان بها الرضوان بأدب يزهى

النفس بانتاج نهجى يعلم الصبر على المكاره و هو يرذلها فى دوائر الحاكمين تصنفهم كواسر من أبالسة مرذولين. هنالك شىء له قيمة الترجيح، أظنه قد عجل فى أحداث التحويلات النفسية التى تحلى بها الإمام على بن الحسين، و هى احتكاكه بابنه محمد الباقر، و بالانصارى جابر ابن عبدالله، و هما يرجوانه - بحرارة - أن يذيب حزنه على أبيه الحسين فى دائرة الاهتمام بأمر الرعية، فيكون له - من ذلك - مرضاة الله فى خضوع لمشيئته، و تلبية ماسة للقيام بمهام [صفحه ۱۶۰] الامامة... ان هذا الرجاء المزدوج نجده واردا فى بعض صفحات من هذا الكتاب، و هو الذى لباه الامام، وراح ينشىء أدب الأدعية التى وصفته بزين‌العابدين - ان فى بسمته أيضا - غلالة من حزن لا تزال موصوفة. ولكن بريقا آخر كان يسوح فى عينيه - من بعد الى بعد - كلما حوله صوب ابنه محمد، و هو جالس القرفصاء - على الحصير - بين طلاب راحوا يملأون قاعة الدرس فى المسجد المرحب بالامام العائد - و لو من كربلاء - حتى يوسع بالعلم النفيس جميع ردهاته. لم يبلغ الفتى محمد الباقر السابعة عشرة من عمره - كما أتوقع - حتى اتسعت فى المسجد زاوية أخرى من زواياه المقدسة، راح الفتى يمسحها بعلم الحساب و علم الجغرافية البطليموسية، و بشىء من علوم الفيزيا، و الميكانيك، و بشذرات عجيبة من علوم الكيميا... تاركا لأبيه الإمام التبسط بالفلسفة، و الحديث، و الفقه، و نباهة التفسير. لقد أدرك - مليا - الإمام زين‌العابدين، أن العلوم هى نفحة سنية من نفحات الرسول، أوحى الى حفيده بأن يفجرها على الأمة المحرومة من عطاياها، بعد أن جردوها من جدواها بتعطيل فعل الامامة التى شدها الرسول - خصيصا لافاضتها على الأمة نورا و هداية. على مدى عقدين تقريبا، أضحى المسجد أوسع من معهد تدريسى عادى، لقد راح يغص بالطلاب الوافدين من مكة، و واسط، و اليمن، و الكوفة، و كل الحجاز، لقد زاره فى الفترة الأخيرة وال من الولاة الموصوفين بالعلم و التقوى، اسمه عمر بن عبدالعزيز، فأدهشه ما رآه فى المسجد من علم، و تخصص، و تجرد، و تفان عفيف، فأمر بتوسيع مدارجه، بحيث أضحت رقعة أرضه تنوف عن أربعين ألف ذراع. لقد نال الصدق، و الاخلاص، و وضوح الرؤيا، جائزة وسعت المسجد من معهد عادى الى جامعة... و هكذا أغمض الإمام زين‌العابدين عينن قريرتين و هو يترك الجامعة فى عهدة من ركزها تركيزا علميا صادق التوجيه باسم أهل البيت. [صفحه ۱۶۱] و على مدى عقدين تلوا غياب الإمام زين‌العابدين، و الإمام يسخو على الجامعة يتفتيشه الدؤوب و المخلص عن كل مادة علمية يعرفها العصر: كالطب، و الهندسة، و التاريخ، و رصد النجوم، و التعدين، و كشف المساحات... فإنها كلها أصبحت فى خزائن الجامعة ، يدرسها - أولا - ثم يشرحها هو بذاته لطلابه المريدين و المتشوقين. كيف اتفق - يقول السؤال المتحرج - للعهد الذى لم ينج. من اثم وال اسمه يزيد، أن ينجو من سلسلة ولاة ما طاب منهم لا- اثنان على مدى يقارب الأربعين سنة، و هما معاوية بن يزيد يرفض الحكم موروثا عن أبيه الخليع... و عمر بن عبدالعزيز، ليس له من جدوده المروانيين، لا- خيط باطل كمروان بن الحكم، و لا- خلاعة تفرد بها يزيد بن عبدالملك، شارب الطلى، و شارب الدماء، و مولى الحجاج على جماجم العباد... بل تفرد بصنج من ذهب، نقش عليه صلاة تقية، و سيرة ذكية، عرفت الحق، و نادت بالصواب... أما الباقون فحلقات من المروانيين، ما حكموا، بل ظلموا، و فحشوا، و انتهوا ببخيل أحوال، هو هشام بن عبدالملك... بديهى أن يكون الجواب على السؤال المتحرج مشروحا بهذا الشكل: ان العهد مع الإمام زين‌العابدين هو المتكامل بعهد الابن الإمام الباقر، و هو العهد الواحد الذى طالت اقامته فى يثرب، و توضحت معالمه ورؤاه فى جامعة المسجد. لم يكن له الا ترسيخ العلم من مأرب - لأنه هو الذى يرسخ ثقافة الأمة، و يوضح لها الخطوط الرشيدة، و عندئذ فالحاكم النبيل هو الذى يغطى الساحة لأن الأمة تكون قد أصبحت تعرف كيف ترفضه ان لم يكن نبيلا. لقد تبنى العهد المتلملم على ذاته قضية بناء الأمة بقوتها الذاتية المتدرجة اليها من محصلاتها الثقافية، ولن يكون لها ذلك بين مساء [صفحه ۱۶۲] و صباح، بل هو ابتداء من لحظة الصدق و امتداد - مع التوافر الحى - الى قبضة من عقود السنين... و هكذا فلينم الحاكمون قريرى العيون فوق كراسيهم، لأن العهد لا يطمع بحكم لم تنله بعد هاتيك الثقافة... لقد قدم العهد ضمانة للحاكمين - فى عدة مناسبات متتالية - تقول لهم: ليس للعهد مطمع بحكم يحضره الحقد و أخذ الثأر بصفوف قبلية، و هذا ما كان لون واقعة الحرة فى يثرب، و لون انتفاضة التوابين فى البصرة و الكوفة، و حتى لون الثورة التى توسعت و انتصرت بقيادة المختار الثقفى... فانها كلها - بلا استثناء - لم يخطط

لهـا الإمـام زين‌العابـدين و لم يتصـل بها بتاتا ذلك الرائى الآخر المؤسـس فروع العلم فى المسـجد، لأن العلم لم يخطط لها وعيا مثقفا يشـمل الأمـة و يعبر عن رفضـها حكمـا يجزىء الأمـة قبليات قبليات، و لا يوحـدها فهما و وعيا، و تقريرا مصـيريا يعتز بها الغـد المنور. صحيـح ان ذلك كان شـكلا من تقية قام بها العهد لتحاشـى تعدى الحاكمين، ولكنه - بالقوت ذاته - لم يكن كرمى لعيونهم المعمية بمجـد كـاذب، ينيلهم الثراء طافحـا فى الغبـاء... فلينـالوا الآـن ثراءهم، و ليبق لهم - إذا أرادوا - فيض الغباء، على أمل أن يتركوا للعهد فسـحة التركيز فى جامعـة المسـجد، و غـدا، أو بعـد غـد يشـرق يوم آخر على الأمـة، تأخـذ منه نضـجا فى قـدورها فتفرقـة طعامـا على الحاكمين، تتثقف بها سـياساتهم، و تنجلى عيونهم من الغباء الـذى تثيره أقـدام الجهل مع أقـدام القبليـة. جل ما كان يتمناه الإمام الباقر اطالـة عمر الجامعـة حتى يمتن التركيز و تتوضـح الاشارات اليها، فيكثر طلابها و يكونون نقلـة علم، و حملة أقلام، و أساتذة مدارس و جامعـات تحتاجهم الأمـة موزعين فوق رحابها. جليل أن تنشأ جامعـة فى يثرب، ولكن الأجل الأجل، أن تتعانق المـدارس و الجامعات فى كل مـدن الأمـة، و فوق كل مجالاتها المترقبة يقظة [صـفحه ۱۶۳] الفكر، و حركـة العمران، و تلك هى الانتصارات الزاحفـة نحو فذوذية التحقيق فى مؤاده العلمى - الثقافى المرتجى. ان العلم الصـغير و العلم الكبير هما فى جناحيهما المتلازمين فى عملية نقل الفرد الى عمارة الأمـة، و نقل الأمـة الى القيمة الرفيعة المدافعة عن سـلامة الفرد فى اعتباره حجرا كبيرا فى قلعة سورها. لم يكن الإمام الباقر متخوفا من يـد الحكم تعرقل مسـعاه، فاحترازه من الحكم قد بناه على طمأنته بأن السـياسة ليست مطلقا من مبتغاه، و هذا هو الذى كان يرضـى الحكم فى ذلك الحين فيغل يـده عن الأذيـة. ثم ان الإمام الباقر كان يرى أن الحاكم فى ذلك الوقت بالـذات، لم يكن له أن يتلهى بفتح الثغرات - لا سـيما و ان الجو مشـحون بالنقمة عليه - يكفيه ما يدور فى الخفاء من اسـتعدادات انتفاضـية انقلابية، يحضرها فى الجـانب القبلى الآـخر، بنو العبـاس... ولكن الإمام الباقر كان يرى أيضا - بحـدسه المصـيب و علمه الموزون - أن الفئتين المالئتين ساحات الأمة، سيكون لهما من التحفظ و الترقب ما يجعلهما الى وقت طويل - رهناء انتظار الساعة الملائمة لتحقيق الغلبة... الى أن يتم ذلك يكون له - هو الإمام - تركيز آخر، تنطلق به الجامعـة الى تحقيق هى الأمـة بحاجة اليه فى ابتعاد الفئتين المتعاديتين عن المسـعى السـليم. أما بنو العباس، فان الإمام يتمنى لو يصدقون إذا تيسر لهم الحكم، و تسلموا مقاليده، و أن يعودوا الى الاذعان و يطيعوا رغبات الرسول فى تمكين خط الامامة من الاطلاع بمهماته المرسومة - لكانت الأمة هى الواصـلة سريعا الى تعميم العلم، و اعتباره - كالنور و الهواء - هبـة من الله لعبـاده، و حاجـة كالماء و الطعام - لقيام الحياة بأود أبنائها. ولكن الإمام كان خفيف التفاؤل بهم لأنهم لا يسـعون الى الحكم الا [صفحه ۱۶۴] بخط قبلى تقليدى عتيق، لا بنهج رسالى واضح المعالم و بارز الخطوط... انهم يدجلون - على ما يبدو - و يموهون، ولن يكون الـدجالون من الصادقين. هـذا هو الجواب الكامل على السؤال المتحرج... ولكن الإمام لم يسـلم من نقطـة سم، وجهتها التهمـة الى هشام بن عبدالملك... بعد أن فجر العلم، على مدى ثمانية و خمسـين عاما تاركا للأمة و لابنه الإمام جعفر الصادق تابعة العمل الكبير الذى لم تشـهد الأمة تصـميما مثله منذ ذلك الوقت الى مثل هذا الحين. سيبقى الإمام الباقر فذا فى تفجيره العلوم، و احاطة مثلى بمؤديات لا تقوم بغيرها نهضة من نهضات الأمم. [صفحه ۱۶۵]

الاحاطة

سيكون لنا وقوف بالغ الاحترام، يخشـعنا فى حضـرة الإمام معبئا كل مواهبه باحاطـة علميـة و فكريـة و روحيـة منوعة المواد، و مرجحة الأـوزان، و كلهـا طاقـات مجهـدة، لاـ يتنـاول الفرد طاقـة واحـدة منها الا و يجهـده بها و لها التفرغ و الاختصاص. أما امامنا الكبير فقد تناولهـا مرزومـة فى باقـة واحـدة - بـاسم العلم - و راح يسـتجليها طاقـة طاقـة، و يسـتدرجها لغزا لغزا، بالـدرس و التنقيب، حتى إذا ما استسـلمت اليـه الواحـدة تلـو الأـخرى، هب الى تلاميـذه يشـرحها لهم: بشـفتيه، و عينيه، و بنانـات كفيه العفيفـتين. هكـذا تنـاول مـادة الحسـاب، و الهندسـة، و الاقتصـاد، و مـادة الفيزيـاء، و الكيميـا، و مطالع النجوم، و علم الجغرافيا، و التاريـخ، و دوران الأفلاك، و بناء الأجسـام، و الطبابـة، و المـداوة - و الى معالجـة الفكر و الروح بالفلسـفة، و ما يفترع منها من علم فقه، و علم حـديث، و علم أصول و

اجتهاد. علی کل هـذه العلوم و هـذه الأبحاث، بنی و وسع جامعته فی یثرب، مجهـدا نفسه - وحـده - بالدرس و الشـرح و التلقین، مع الساعات الأولی للفجر، و مع تراسـلات أشـعة البـدر ما زال مهلا و مضـیئا، علی مـدار خمسـین سـنة من عمره القصـیر. لقـد ناف عـدد تلامیـذه علی أربعـة آلاـف من المتخصصـین البـارزین فی علم الفقه، و علم الحـدیث، و علم الأـصول، شـأن أبان بن تغلب، وزرارة [صفحه ۱۶۶] بن أعین، و محمـد بن مسـلم... مع التنویه الکـبیر بمـا أحرزته الجامعـة من تأسـیس متین فی علم الکیمیـا، أم المعادلاـت العجیبة، مما تفرد به فی حقل الاختصاص، ابنه الإمام جعفر الصادق مع تلمیذه النابغة جابر بن حیان الذی عکف عل اجهاد المعادلات علها تسـتجیب و تتوصل الی إلهاب المعادن الرخیصـة، و تحولها الی لمعان ذهبی یخطف الأبصار. هکذا عرف العلماء فی الغرب قیمة مدرسـة الإمام الصادق الموروثة عن أبیه الإمام الباقر، و قدموا دراسة وافیة عنه، و وصـفوا الجامعة فی یثرب بأنها نشاط باقری عز نظیره فی تلک الأیام الخالیة من النشاطات العلمیة الراجحة التحقیق، لقد ترجم الی العربیة هذا الکتاب النفیس بشـهادته للإمام الصادق و أبیه الإمام الباقر، الـدکتور نور الـدین آل علی، و فیه توضـیح واف لما أقول. إن جهود الإمام الباقر - کما یبـدو و بوضوح - قد جعلته ملما بکل مادة علمیـة أخذها علی عاتقه بالدرس و الاحاطة، ثم بالشـرح و التعلیم و لقد أکسـبته احاطة بها، کأنه المتفرغ و المتخصـص فی کل واحـدة منها علی انفراد. ولکن هـذه الاحاطـة - بدورها - لم تکن غرضا یشـبعه، و یکتفی به، اذ یصل الیه، بل انه کان یسـعی الیه کوسـیلة قائمـة بـذاتها، تبتـدیء الآن به، کما کان مخططا أن تبتـدیء بجده الإمام علی، ثم عندما یصل الدور إلیه - تمر علیه فتتکامل استئنافا لمؤداها، الی أن تناولها - من بعـده - بـذات المفعول و بـذات الایمان، من تصل الیه لمتابعـة الخط الامامی الـذی عینه جـده الرسول، و نوره بالمهدی المنتظر. کل احاطة علمیة فردیة - مهما تبلغ دائرة تحصیلها الذاتی من عمق و اتساع - تبق حسیرة مخنوقة، ما لم یتسع بهـا الشـمول الی المـدی الجماعی، و هی تتکیف به انـدماجا تفاعلیا مسـتغرقا فی حقیقـة الـذات، و فی [صـفحه ۱۶۷] حقیقة التعبیر عن متطلبات تلـح بها حاجات الحیاة فی المجتمع الانسانی... و العلم ذاته هو حاجـة اجتماعیـة یفرض تحقیقها المجتمع ذاته، فی اسـتدعاء الفرد للقیام بها و تحریکها فاعلة ملبیة. و لن تفعل ان لم تشمل الکثرة الساحقة فی تألیفها الندوة الاجتماعیة الناشطة، و عندئذ فالعلم هو المجتمع المحقق ذاته بذاته، بتحریض ناتج من ارداته المشـتاقة، و هو - ساعتئذ - تلبیة صادقة تتحول تلقائیا الی تدرج ثقافی یتمرس به المجتمع، و هو یرتب أود معـاشه فی محیطه المتلازم به شأنا مصـیریا - أنانیا - انمائیا، یتمیز بعز و رفاهیـة تعین قـدرها تلک الثقافـة الناتجـة مـن التضـافر العلمی، و مـن مقـدار تمکـن المجتمـع من تعمیمه و تنشـیطه فاعلاـ فعله المتکامـل. و لاـ یفعـل العلم فعله المتکامـل الاـ فی المجتمع المندمـج به انـدماجا، عضویـا، و هکـذا هو - فی المجتمع - من بیئته، و حاجاته، و مناخاته، و جمیع شؤونه الفکریة، و الروحیة، و الحیاتیة: فهو فلسـفته، و أدبه، و سیاسـته، و جغرافیته، و زراعاته، و صناعاته، و تجاراته، و نهجه فی التصرف... و کلها الی تطویر، و تصویب، و تعدیل، و تنسیق، و تثقیف، و بالتالی الی تنمیة انسانیة و حضاریة ترتفع به من سویة الی سویة أخری، لا تحققها الا الثقافات الصـحیحة، و المثالیات المرتفعة بقیمة الانسان. و العلم الصحیح المرکز علی حاجات الانسان فی مجتمعه القائم به، هو التماس صادق التعبیر، و الا فهو عنجهیـة فردیـة تنتـج غرورا فی النفس متقزما فی ادعائه، و لا ینتـج - أبدا - ثقافة مرجوة. و لیسـت الثقافات - فی مطلق الحال - أقل من انتاج جماعی، یتهـذب به الفرد الـذی یسـتدعیه المجتمع الواعی الی دوائره المحصـنة... سـیکون المجتمع بنـاء الفرد، و سـیکون الفرد - أبـدا - هو المسـتدعی الی انشاء القلعـة التی تمتن به، و بها یعتز. [صـفحه ۱۶۸] ذلک کله هو مبتغی الإمـام البـاقر، فی انباثقه من أشواق جـده الرسول، و من واقع الأمـة التی تسـتدعیه - بکل ما هو واقع راهن فیها - الی انتفاضات هادئـة ورصـینة، تمشـی کما یمشـی النور الی بری الظلمات، من دون تعثر بالوعورات التی هی حفر فی الدروب یغطیها الهشـیم. العلم الکامل وحـده - هو الطاقـة الفاعلـة فی احـداث الانتفاضات الهادئـة و المنتصـرة علی البؤس، و الظلم، و الفقر، و الجهل، و السـیاسات الهمجیـة... و العلم المتکامـل هو المتمـادی فی نضـجه التخمیری الکامن فی معادلاته الثقافیـة، و هی التی تتناول المجتمع فی تهـذیب خلایـاه، و تنظیفه من هشـیم الریب. هنـا محـط آمـال الإمام الباقر: ابتـداء مصـمم علی ترکیز العلم، و نشـره، و تعمیمه... لأن الأمـة هی بحاجة الی منشورا، و معمما، و فاعلا فیها فعل الخمیر. فاذا صحت الآمال، و استقامت لها الأشواق فی التنفیذ المرجی، و حسب الخطط

المرسومة، فالأمة هى على الدرب الأمين، تنظفه - رويدا رويدا - ثقافاتها من تراكمات الهشيم. أما إذا تعكرت السماء و ادلهمت بها أعاصير... فان على الشاطىء ما هو مغروز كعمود منارة، يشير الى جامعة لا يتمكن من محوها الدهر... انها فى يثرب تذكر الأمة: بأنها لن تنال من الفلاح شأوا، ما لم تنشر فى كل رحب من رحابها جامعة تغص بالعلم و الطلاب. الامام الباقر هو الضوء الكبير المنثور فوق السارية. و هو عميد الجامعة و انه القدوة... و انه نجى الرسول...

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جِهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد

جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

مرکز القائمیة اصفهان
للبحوث والتحریات الکمبیوتریة
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلکم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹